بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمده ونستعينه ونستغفره ، ونَعُوذُ باللّه من شُرُور أَنْفُسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضلل فلا هادي له ، وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللّه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمرن : ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب]

أما بعد .. فإن أصدق الحديث كتاب اللّه تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار **أما بعد** :

فهذه وصايا جامعة بليغة من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأمته في جميع شئون الدين والدنيا ، تحمل في طياتها العظة والاعتبار ، والحث على الرجوع إلى اللّه تعالى والالتزام بمنهجه سبحانه .

ورسول اللّه ﷺ ما ترك شيئا يقربنا من الجنة إلا وأمرنا به ، وما ترك شيئا يقربنا من النار إلا ونهانا عنه ، حتى قال أبو ذر رضي اللّه عنه : « لَقَدْ

تَرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا يَتَقَلَّبُ فِي السَّمَاءِ طَائِرٌ إِلَّا ذَكَّرَنَا مِنْهُ عِلْمًا » (١) .

وتطلق الوصايا شَرْعًا أيضا - إضافة إلى للمعنى الفقهي - : عَلَى مَا يَقَع بِهِ الزَّجر عَنْ المَنْهِيَّات وَالحَثّ عَلَى المَأْمُورَات(٢) .

وما أحلى الحديث عن وصاياه ﷺ ، وما أعْذَبه ، وما أَرَقَّه لا سيما إذا كان الشارح هو الشَّيخ الإمام محمد متولي الشعراوي ، الذي يَصْحَبُنا بحديثه العذب الرقيق ، ويجلي لنا هذه الوصايا بإسلوب سهل جميل ويميط اللثام عن كثير من معاني وصايا سيد الأنام ﷺ .

والناظر في هذه الوصايا يجد أنها تحوي دُرَرًا من كلام من أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغي التنبه له : أنه وإن كان في بعض الوصايا - وهو قليل جدا - ضعف ؛ فهو مما يتساهل به في باب الرقائق وفضائل الأعمال .

عملنا فى هذا الكتاب :

١ - تم إعادة الصياغة وتحويل الكلام من أسلوب المتحدث إلى أسلوب الكاتب بعناية فائقة ، لا تُخرج النص عن روحه ومفهومه .

٢ - حافظنا كل المحافظة على المَيزة التى تفرد بها الشيخ عن أقرانه ، وهى سهولة العبارة ودقة الإشارة وبيان المطلوب بوضوح غير ممل واختصار غير مخل .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [١٥٣/٥، ١٦٢] ، والطيالسي [٤٧٩] ، وأبو يعلى فى مسنده [٥١٠٩] وقال محققه : إسناده صحيح ، وابن حبان فى صحيحه [٦٦٣٦] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٢) راجع : فتح الباري [٣٥٥/٥] .

٣ - تم مراجعة الأحاديث على مصادرها من كتب الحديث ، والتزام لفظ الحديث الوارد ، وشرح المبهم والغريب .

٤ - تم تخريج وتحقيق الأحاديث والآثار الواردة فى الكتاب وعزوها لمصادرها والحكم عليها صحة وضعفاً ، من أقوال علماء الحديث وكتب الرجال .

٥ - الآيات القرآنية التى يُفسرها الشيخ أو يستشهد بها ضمن تفسيره نرسمها على رسم المصحف العثماني ، مضبوطة بالشكل الكامل على الرسم الثابت فى المصحف .

والله الكريم ، أسألُ التوفيقَ والإنابةَ والإعانة ، والهدايةَ والصيانةَ ، وتيسيرَ ما أقصده من الخيرات ، والدوام على أنواع المكرمات ، وأسألك اللهم كما جمعت بيننا وبين شيخنا على الحق فى الدنيا أن تجمعنا وإياه فى مستقر رحمتك فى الفردوس الأعلى من الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

وحسبى الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ، ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، توكلت على الله ، اعتصمت بالله ، استعنت بالله ، وفوَّضت أمرى إلى الله ، وَاسْتَوْدِعُهُ دينى ونفسى وأهلى وإخوانى وأحبابى وسائر من أحسن إلىّ وجميع المسلمين وجميع ما أنعم به علىّ وعليهم من أمور الآخرة والدنيا ، فإنه سبحانه إذا استودع شيئاً حفظه ونعم الحفيظ . وصلِّ اللّهم وسلم وبارك على النبى المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

القاهرة ١٦ يناير ٢٠٠٣ م
١٣ ذو القعدة ١٤٢٣ هـ

عبد الله حجاج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ

وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟

الوصية الأولى

وصيته ﷺ السمع والطاعة وحق الجار والصلاة

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : أَوْصَانِي خَلِيلِي عَلَيْهِ السَّلَام بِثَلَاثَةٍ :

(١) اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِعَبْدٍ مُجَدَّعِ الْأَطْرَافِ .

(٢) وَإِذَا صَنَعْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهُ بِمَعْرُوفٍ .

(٣) وَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا ، وَإِذَا وَجَدْتَ الْإِمَامَ قَدْ صَلَّى فَقَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ وَإِلَّا فَهِيَ نَافِلَةٌ »(١) .

الشرح

○ **قوله ﷺ : « اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ لِعَبْدٍ مُجَدَّعِ الْأَطْرَافِ » :**

وضع النبي ﷺ بهذه الكلمات ثمرات كلمات متعددة من الخلق إلى أن تقوم الساعة إذا سمعناها بوعي استطاع لساننا أن يُقدّمها إلى الناس بوعي .

---

(١) رواه أحمد في المسند [١٦١/٥، ١٧١] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عبد الله بن الصامت فمن رجال مسلم ، والبخاري في الأدب المفرد [١١٣] وقال الألباني صحيح وهو عند مسلم مختصرا مفرقا في مواضع [٦٤٨/٢٤٠-١٨٣٧/٣٦-٢٦٢٥/١٤٣] .

فإذا قدمها الإنسان بوعي أمكن أن يتعرف الناس على حقيقة ما دعا إليه النبي ﷺ لا لمعاصريه فقط ولكن لمن يجيء من بعده إلى أن تقوم الساعة .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الكلمة يدعونا إلى أن نستمع إلى الحق ولو جاء الحق من غير مَظَنَّة الحق(١) .

ومَظَنَّة الحق في الناس أن يكون المتكلم ذا جاه أو ذا مكان ، أو رجل مرموق . فقد لا تتأتى من هذا الرجل المرموق الحكمة ، ولكن ربما جاءت الحكمة من إنسان لا تأبه له المناظر !

والله سبحانه وتعالى وزَّع أسباب فضله على الخلق فلم يجعل واحدًا مجمعًا لفضائل بل جعل هذا يأخذ من الفضائل جانبًا ، وذلك يأخذ من الفضائل جانبًا حتى يستوعب الخير كل الناس ، ويصبح الحكم على أي إنسان بمجموع ما فيه من خصال الخير لا بخصلة واحدة فيه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا صَنَعْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهُ بِمَعْرُوفٍ » .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يشيع الخير في الناس ، فالله تعالى يريد أن لا يُحْرم أحد من أن يكون له خير على الناس .

---

(١) فقد عدَّ النبي ﷺ ردّ الحق من الكبر فقال ﷺ : « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ » رواه مسلم [١٤٧/٩١] من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .
قال النووي رحمه الله : « أما بَطَر الحَقّ » فَهُوَ دَفْعه وَإِنْكَاره تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا .
وَقَوْله صلى الله عليه وسلم : « وَغَمْط النَّاس » مَعْنَاهُ اِحْتِقَارهمْ .

كَثِّر المرقة واعط كل واحد كوب مرقة ؛ ولذلك حتى في أمثال الفلاحين يقال : « اللي ما تصيبة اللحمة تُصيبُه المَرَقة » .

فلو أعطاك أحد جيرانك طبق مرقة على سبيل الحاجة ستضطر إلى أخذها وتَشْكُره عليها .

وإن كان على غير حاجة اقبلها منه على سبيل الهدية ، على قَدْر طاقتك لا على قدر طاقة كرامتك أنت ؛ لأن هذه الهدية تشيع ألفة المودة .

فلا تضن بشيء ولو كان قليلاً .

والجار هنا في الحديث أقرب الناس إليك ؛ لأننا إذا نظرنا إلى الجار لوجدنا أنه ينفعنا أكثر مما ينفعنا القريب البعيد .

هب أنه حدث لي شيء بالليل فسأستغيث بأقرب الناس مني وهو الجار فهو أول من يُسْعفني ويُزيل صراخي ، ولا أستغيث بأهلي الذين هم بعيدون مني مسكنًا .

وهذا هو السبب في أن النبي صلى الله عليه وسلم وصَّى بالجار ؛ لأن منفعته لي أقرب من منفعة القريب بالدم لي البعيد مسكنًا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا » .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يديم صلة الإنسان به .

هب أنني أردت أن أُقَابِل عظيمًا من عظماء الدنيا فإنَّ الحُجَّاب سيمنعونني فأطلب منه أولاً أن ألقاه ، وهو حر أن يستجيب أو لا يستجيب .

فإذا استجاب إلى لقائي فهو يُحَدِّد الزمان ويُحَدِّد المكان ، ويسألك في ماذا تريد أن تتكلم ؟ ثم هو الذي ينهى المقابلة !

وكذلك ربك سبحانه ولله المثل الأعلى هو الذي يدعوك لأن تلقاه ، وليس أنت الذي تدعوه للمقابلة ، فإن لم تجب ندائه للمقابلة فأنت آثم .

وهو يدعوك في اليوم خمس مرات ، حتى يُزيح عن الناس غبار الغفلة إن طرأت غفلة في اليوم .

« الله أكبر » معناها : تعال يا عبدي .

فإذا خرجت من الصلاة وذهبت إلى حركة الحياة بعد قليل يدعوني مرة أخرى « الله أكبر » تعال يا عبدي .

إذا كان هناك صنعة من الصّناعات تتردد على صانعها كل يوم خمس مرات هل يوجد فيها عطب ؟

فالله الذي خلقك يَستدعيك إلى لقائه ليُخفف عنك ما أَلَمَّ بك من مَتاعب قبل الوقت ، ويُعْطى لك طاقة من الإيمان أَنَّ لك ربّ .

هذا الرَّب هو الذى دَعَاكَ ليحتفي بك ، فإذا مَا نَادَاكَ فلا تنكث عن النداء واذهب إليه ؛ لأنه سيمدك بطاقة ولله المثل الأعلى .

فمثلاً البطارية عندما تضعف قليلاً ، أقوم بشحنها لكى أخذ قوة لها استفيد منها بعد ذلك .

فلا تستكثر زمنًا يُنَاديك فيه ربك للصلاة ولكن احصر الخير الذي يَعُود عليك من هذا اللقاء مسحًا لأحزانك الماضية وفاقة قوية لجهدك المستقبل .

فيجب على الإنسان أن يكون ذكيًا وفطنًا ، فلا يؤجل « الله أكبر » في مطلوبها ، وبعد ذلك يأخذ أي عمل من أعمال دنياه ؛ لأن هذا اللقاء سيعينك على هذا العمل ، وهذا الذي نسميه بركة الوقت .

فيجب أن يتنبه الإنسان إلى ذلك وأن لا ينكث عن نداء الله له .

ooo

الوصية الثانية

عظات بليغة تزيد على عشرين وصية

عن معاذ رضى اللّه تعالى عنه قال : أخذ بيدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فمشى قليلاً ثم قال : يا معاذ : أُوصيكَ بـ :

« تقوى اللّه ، وَصِدْق الحديث ، وَوَفاءِ العهدِ ، وأداءِ الأَمَانةِ ، وتَرْكِ الخيَانةِ ، وَرُحْمِ اليتيم ، وحِفْظ الجوارَ ، وكَظِمِ الغَيْظِ ، وَلِين الكَلام وبَذْل السَّلام ، وَلُزوم الإِمَام ، والتَّفَـقُّهُ في القرآن ، وحُـبُّ الآخرة ، والجَزَعِ من الحِسابِ ، وقِصَرِ الأَمَلِ ، وحُسْن العَمَلِ .

وأَنْهاكَ : أن تَشْتُم مُسْـلِمًا ، أَوْ تُصَدِّقَ كَاذِبًا ، أَوْ تُكَذِبَ صَادِقًا أَوْ تَعْصِي إِمَامًا عَادِلاً ، وأَن تُفسِدَ في الأَرضِ .

يا معاذ : اذكر اللّه عند كُلِّ شَجَرٍ وحَجَرٍ ، وَأَحْدِثْ لِكُلِّ ذَنْبٍ تَوْبة ، السِّترُ بالسِّرِّ والعَلانِية بالعَلانية »(1) .

---

(1) رواه البيهقي في كتاب الزهد [٢/٣٤٧] من رواية إسماعيل بن رافع المدني عن ثعلبة ابن صالح عن سليمان بن موسى عن معاذ به .

وقال الألباني رحمه اللّه في ضعيف الترغيب والترهيب [١٨٤١-٢/٢٩٦] : « إسناده ضعيف ؛ ثعلبة بن صالح لا يعرف إلا بهذه الرواية ، وإسماعيل بن رافع ضعيف ، وهو في الصحيح من طريق آخر مختصر وهو مخرج في الصحيحة تحت الحديث [٣٣٢٠] » .

الشرح

○ قوله صلى اللّه عليه وسلم : « أُوصيكَ بتقوى اللّه .. »

هذه العظات من رسول اللّه ﷺ تعطى موجزًا لأمهات المنهج .

أول هذه العظات : « التقوى » وهي : أن تجعل بينك وبين صفات جلال اللّه وقاية .

والوقاية : « افعل ولا تفعل » . أي : لا تخالف .

فلا تنقل « افعل » في مجال « لا تفعل » .

أو تنقل « لا تفعل » في مجال « افعل » .

وكما جاءت بالنسبة لله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ جاءت بالنسبة للنار ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ أي : خافوا من عقاب اللّه الذي من جنوده النار .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « وصِدْق الحديث » :

الصِّدق : معناه مُطَابقة كلامك للواقع .

فلا يُجرب عليك السَّامع منك شيئًا كذبًا فيه .

وهذا يدلك على أمانة تلقي الواقع ونقل الكلمة .

ومعنى « تلقي الواقع » : أن تحكم بواقع الشيء ؛ لأنَّ الواقع لا يتغير أبدًا ، فالكذاب قد يكذب الآن ، ويكذب غدًا فينسى مَا كَذَبَهُ بالأمس ، ولكن الصَّادق مرتبط بواقع لا ينسى ، فهو حين يتكلم يتكلم عن واقع .

ولذلك قالوا : « إن كنت كَذُوبًا فكن ذَكُورًا »(١) .

فمادمت كذبت وقلت كذبًا مناقضًا للواقع فقد لا تتذكر ماذا قلت !

وصدق الحديث يترتب عليه أن أمانة الكلمة حين تنتقل بصدق لا يأتي شيء يُخالف الواقع لأن مخالفة الواقع تذبذب منهج الله .

فإذا جاء إنسان وكذب عليك فيما تعلم ، فمعنى ذلك لا تصدقهُ فيما لا تعلم .

فَضَيَّق الكاذب على نفسه باب الخبر حتى وإن كان صادقًا .

مثال : الرجل الذي كذب على الناس كل مرة أنه سيغرق وفي مرة كان صادقًا لم يصدقوه لكثرة كذبه سابقًا وتركوه فغرق .

إن كذبت قد يُكْذَبُ عليك ، فالألسنة متعددة ولسانك واحد فإن كذبت بلسان واحد يكذب عليك بألسنة متعددة ، فكل ما يصل إلى ذهنك لا واقع لها ومادام لا واقع لها فليس هناك دستور لواقع حياتك .

(١) راجع : مجمع الأمثال [٧٤/١] : حيث قال بعد أن أورده : « يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيحدث بخلاف ذلك » .

وقال في كتاب جمهرة الأمثال [٣٩٦/٢] : « ومن أمثالهم في الكذب إذا كنت كذوبا فكن ذكورا . قال الشاعر :

تكذب الكذبة جهلا ثم تنساها قريبا كن ذكورا للذي تحكي إذا كنت كذوبا

وفي المستقصى في أمثال العرب [١٢٦/١] قال بعد أن أورده : « أي تذكر ما كذبت لئلا تناقض » .

وقوله ﷺ : « وَوَفاء العَهْد .. »

العهد : رَبْطُ حَدَثٍ بزمن في شيء .

فإذا أنت وفَّيْت العهد مع الناس فهذا دليل على أن لك دُربة في أن تُوفي العهد مع الله ، وإن كذبت في عهد مع الناس فليس لك عهد مع الله .

ولذلك قال النبي ﷺ : « لا » لمن سأله : أيكذب المؤمن ؟(١)

فإن عاهدت إنسانًا على شيء فقد طلبت منه أن يُرتب حياته ووقته وأحداثه على عهدك ، وأنت صرت حرًا في الارتباط .

(١) يُشير الشيخ رحمه الله إلى حديث مالك في الموطأ عن صفوان بن سليم أنه قال : قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ فقال : لا » .

رواه مالك [١٧٩٥] وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق [١٤٧] .

قال ابن عبد البر في التمهيد [١٥٣/١٦] : « حديث سابع لصفوان بن سليم مرسل مقطوع مالك عن صفوان بن سليم أنه قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا . قال أبو عمر : لا أحفظ هذا الحديث مسندا بهذا اللفظ من وجه ثابت وهو حديث حسن ، ومعناه : أن المؤمن لا يكون كذابا ، يريد أنه لا يغلب عليه الكذب حتى لا يكاد يصدق هذا ليس من أخلاق المؤمنين ، وأما قوله في المؤمن : أنه يكون جبانا وبخيلا ؛ فهذا يدل على أن البخل والجبن قد يوجدان في المؤمن ، وهما خلقان مذمومان قد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما » .

وقال في الاستذكار [٥٧٥/٨] : « لا أحفظ هذا الحديث مسندا من وجه ثابت وهو حديث حسن مرسل ، ومعناه أن المؤمن لا يكون كذابا والكذاب في لسان العرب من غلب عليه » .

فأنت عطَّلته عن مسائله وأنت لم تتعطل عن مسائلك ، فأنت قيّدت حركَتَهُ وأطلقت حركتك ، فالواجب أن تَفي بعهدك معه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وحِفْظ الجِوَار »

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »(١) .

---

(١) رواه البخاري [٦٠١٤] ، ومسلم [١٤١/٢٦٢٥] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .
○ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « قال الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة : حِفْظ الْجَار مِنْ كَمَالِ الْإِيمَان ، وَكَانَ أَهْل الْجَاهِلِيَّة يُحَافِظُونَ عَلَيْهِ ، وَيَحْصُل اِمْتِثَال الْوَصِيَّة بِهِ بِإِيصَالِ ضُرُوب الْإِحْسَان إِلَيْهِ بِحَسَبِ الطَّاقَة كَالْهَدِيَّةِ ، وَالسَّلَام ، وَطَلَاقَة الْوَجْه عِنْدَ لِقَائِهِ ، وَتَفَقُّد حَاله ، وَمُعَاوَنَته فِيمَا يَحْتَاج إِلَيْهِ إِلَى غَيْر ذَلِكَ . وَكَفّ أَسْبَاب الْأَذَى عَنْهُ عَلَى اِخْتِلَاف أَنْوَاعه حِسِّيَّة كَانَتْ أَوْ مَعْنَوِيَّة . وَقَدْ نَفَى صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَان عَمَّنْ لَمْ يَأْمَن جَاره بَوَائِقه كَمَا فِي الْحَدِيث الَّذِي يَلِيه ، وَهِيَ مُبَالَغَة تُنْبِئ عَنْ تَعْظِيم حَقّ الْجَار وَأَنَّ إِضْرَاره مِنْ الْكَبَائِر . قَالَ : وَيَفْتَرِق الْحَال فِي ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْجَارِ الصَّالِح وَغَيْر الصَّالِح . وَالَّذِي يَشْمَل الْجَمِيع إِرَادَة الْخَيْر لَهُ ، وَمَوْعِظَته بِالْحُسْنَى ، وَالدُّعَاء لَهُ بِالْهِدَايَةِ ، وَتَرْك الْإِضْرَار لَهُ إِلَّا فِي الْمَوْضِع الَّذِي يَجِب فِيهِ الْإِضْرَار لَهُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْل ، وَالَّذِي يَخُصّ الصَّالِح هُوَ جَمِيع مَا تَقَدَّمَ ، وَغَيْر الصَّالِح كَفّه عَنْ الَّذِي يَرْتَكِبهُ بِالْحُسْنَى عَلَى حَسَب مَرَاتِب الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر ، وَيَعِظ الْكَافِر بِعَرْضِ الْإِسْلَام عَلَيْهِ وَيُبَيِّن مَحَاسِنه وَالتَّرْغِيب فِيهِ بِرِفْقٍ ، وَيَعِظ الْفَاسِق بِمَا يُنَاسِبهُ بِالرِّفْقِ أَيْضًا وَيَسْتُر عَلَيْهِ زَلَله عَنْ غَيْره ، وَيَنْهَاهُ بِرِفْقٍ ، فَإِنْ أَفَادَ فِيهِ وَإِلَّا فَيَهْجُرهُ قَاصِدًا تَأْدِيبه عَلَى ذَلِكَ مَعَ إِعْلَامه بِالسَّبَبِ لِيَكُفّ .. اِنْتَهَى مُلَخَّصًا » من فتح الباري [٤٤٢/١٠] .

ولذلك قالوا في المثل : « اختر الجار قبل الدَّار »(١) .

يَقُصُّون حكاية عن رجل يقال له : « أبو دلف » كان رجلاً كريمًا واسع العطاء ، وكان لَا يَرُدُّ قاصدًا أبدًا حتى ضرب به المثل : « إنما الدُّنيا أبو دلف »(٢) فإذا وَلَّى ولّت الدنيا على أثره .

كان له جار له بيت صغير بجانبه داره ، وفي يوم من الأيام اعتذر الجار ، وأراد أن يبيع الدار ، فلما قيل له : وما ثمنها ؟ قال : ثمن داري مائة دينار ولكن جوارها لأبي دلف بألف دينار .

---

(١) راجع المستطرف [٦٧/١] وجمهرة الأمثال [٢١٩/١] ويروى كحديث مرفوع إلى النبي ﷺ في كتاب الأمثال في الحديث النبوي [٢٧٤/١] عن سعيد بن معروف ابن رافع عن أبيه عن جده قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : « التمس الرفيق قبل الطريق والجار قبل شرى الدار » وإسناده ضعيف لا يصح .

فائدة : في كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا [٢٢٩/١] : قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ وقال جل وعز : ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ قال في المثل السائر كان بعضهم يقول : لو ضاع لي عقال لوجدته في القرآن الكريم ، قال في حسن التوسل : وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم مع قصور كل لفظ ومعنى عنه وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله ، كما حكي أن سائلا سأل بعض العلماء أين تجد في كتاب الله معنى قولهم : « الجار قبل الدار » قال في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] فطلبت الجار قبل الدار ونظائر ذلك كثيرة . وراجع الفوائد لابن القيم [١٩٧/١] .

(٢) راجع : خزانة الأدب [٤٥٦/١] والمستطرف [٤٩٨/١] .

فلما بلغ « أبو دلف » هذا الكلام فقال : إنَّ رجلاً قدَّر جِوارنا بعشرة أمثال ذلك لجدير أن لا يُفرّط فيه ؛ أعطوه مائة ثمن داره ، وألفًا ثمن جوارنا ، وأبقوه جارًا لنا !!

وقوله صلى الله عليه وسلم « وكَظْم الغيظ » :

الذي لا يكظم غيظه هل يُريد من الناس أيضًا أن لا يكظموا غيظهم ؟ وما أكثر أخطاء الإنسان !!

فاللَّه تعالى يحببنا في كظم الغيظ(١) والمغفرة فيقول : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

(١) قال العلامة القرطبي رحمه اللَّه : « وكظم الغيظ : رده في الجوف ، ويقال كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه .

وكظمت السقاء أي ملأته وسددت عليه والكظامة ما يسد به مجرى الماء .

ومنه : الكظام للسير الذي يسد به فم الزق والقربة وكظم البعير حرته إذا ردها في جوفه وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن يرسلها إلى فيه كظم . حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة إذا لم يجترا .

ومنه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئا غما وحزنا ، وفي التنزيل : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ والغيظ : أصل الغضب وكثيرا ما يتلازمان ، لكن فرقان مابينهما أن الغيظ لايظهر على الجوارح بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ولا بد .

وروي عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يا مولاي استعمل قول اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ قال لها : قد فعلت . =

نقول : نعم يارب ، نريد أن تغفر لنا .

يقول لنا : إذا طلبت ما عندي من المغفرة اغفر لصاحبك ما عندك من الذنب(١) .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، وهو درجات .

ومعنى « كظم الغيظ » : مثل القربة عند غلقها وما بداخلها يريد أن يخرج ، وأنت تكظمه تحبسه ولا تجعله يخرج .

فالدرجة الأولى لكظم الغيظ : حبس الغضب من العمل في نفسك بدون أن يوجد منك فعل يَرُدُّ عليه .

الدرجة الثانية : أن تذهب الغيظ من نفسك ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾

= فقالت اعمل بما بعده ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فقال : قد عفوت عنك ، فقالت الجارية : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ميمون : قد أحسنت إليك فأنت حرة لوجه اللَّه . وروي عن الأحنف بن قيس مثله . تفسير القرطبي [٢٠٦/٤] .

(١) وفي الحديث عن جرير رضي اللَّه عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ وَمَنْ لَا يَغْفِرْ لَا يُغْفَرْ لَهُ » رواه أحمد في المسند [٣٦٥/٤] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح دون قوله : « ومن لا يغفر لا يغفر له » فهو حسن لغيره ، وهذا إسناد ضعيف ، سليمان بن قرم - وإن كان ضعيفا - وقد توبع .

وقال أمير المؤمنين عمر : « من لا يَرحم لا يُرحم ولا يغفر من لا يغفر ولا يعف عمن لم يعف ولا يوق من لا يتوقى » رواه البخاري في الأدب المفرد [٣٧١] بإسناد حسن وراجع السلسلة الصحيحة [٤٨٣] .

ولذلك يقول : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

والفرق بينهما في كظم الغيظ : أن الغيظ موجود والغضب موجود لكن ليس هناك انفعال .

لكن العفو : إخراج هذا كله من القلب .

أما الارتقاء الثالث : أن تحسن إلى من أساء إليك .

فهذه ثلاثة : تكظم غيظ وتعفو وتُحسِن إلى من أَساءَ إليك .

ولماذا تحسن إلى من أساء إليك ؟

لأن الذي أساء إليك عمل فيك جميلاً فإنه عندما أساء إليك جعل الله في جانبك وكون الله في جانبي أكثر من إساءته إلي .

ونضرب لذلك مثلاً : الإنسان عندما يدخل عليه ولد من أولاده ضرب أخا له ، فَقَلْبُه بالتأكيد مع المضروب .

فالذي أساء إلي يجعل الله مع المُساء إليه .

ومادام الله مع المُساء إليه فهو يستحق مني أن أُحسِن إلى من أساء إليَّ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولين الكَلام »

لا تقبل على الحقائق بعنف وقسوة ؛ لأنك تُكرِّه الناس في الحق ؛ لأن الحقائق مُرَّة ، فَهاتِها بشيء من اللِّين ومن اللطف كما نفعل في الأدوية المرة فالنفس لا تستسيغها أو الذوق لا يقبلها وينفر منها فنعمل لها غلاف من الكبسولة أو البرشامة فنمررها من منطقة الذوق وتدخل في الأمعاء .

ولما تدخل في الأمعاء لا تُحِسُّ بمرارتها .

فلين الكلام : تجعله لَيِّنًا ولو كانت الحقائق مرة فاستعر لها خفة البيان .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وبَذْل السَّلام »(١)

المُقْبل عليك لا تعرف أهو مقبل عليك بخير أم بشر ؟

فتتوجس منه وتتحفز !!

وعندما يقول : السلام عليكم .

تعرف أنه جاء بخير ؛ لأنه أَلْقى السلام السلام عليك مني وأُريد السَّلام منك علي ؛ لأننا مفاجئين بمقابلتنا لبعض .

فأنا لا أريد شر مني عليك ولا شر منك عليَّ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولُزُوم الإمام »(٢) .

الإمام هنا : إمام الأمة المُوَلَّى انظر لأوامره :- ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

(١) ولا شك أن بذل السلام من محاسن الإسلام ففي صحيح البخاري [١٢] ومسلم [٦٣/٣٩] من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » . قال الحافظ رحمه الله : « قَوْله : « وَمَنْ لَمْ تَعْرِف » أَيْ : لَا تَخُصّ بِهِ أَحَدًا تَكَبُّرًا أَوْ تَصَنُّعًا ، بَلْ تَعْظِيمًا لِشِعَارِ الْإِسْلَام وَمُرَاعَاة لِأُخُوَّةِ الْمُسْلِم .. » . فتح الباري [٥٦/١] .

(٢) السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين في غير معصية أَمْرٌ أَمَرَ به النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وهو أصلٌ مُجمَعٌ على وجوبه عند أهل السنة والجماعة ، وهو من =

لكن يُلاحظ أن التعبير القرآني هنا دقيق ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ هنا طاعة وهنا طاعة ، لله حُكم في كتابه وللرسول حُكْم في تَشريعه لم يقل في أولى الأمر « وأطيعوا أولى الأمر » ليدلك على أن طاعة أولي الأمر من باطن طاعة الله ورسوله : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »(١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « والتَّفَقُّه في القُرآن » .

لا تنظر إلى ظاهر الآية بل تدبرها وافهم معطياتها .

فلما تَتَفكَّر وتَتَدَّبر مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

فالله يريد من الإنسان إذا أُصيب بشيء يُسيئه ينفعل غضبا لكن الغضب يقول لك : اكظمه ، وعندما تكظمه لا تجعله يُتْعبك فاعف واترك كأنها لم تحدث .

= أصولهم التي باينوا بها أهل البدع والأهواء ، والحكمة في الأمر بطاعتهم : المحافظة على اتفاق الكلمة لما في الافتراق من الفساد .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « وأما أهل العلم و الدين و الفضل فلا يرخصون لأحد فيما نهى الله عنه من معصية ولاة الأمور و غشهم والخروج عليهم بوجه من الوجوه كما قد عرف من عادات أهل السنة و الدين قديما وحديثا و من سيرة غيرهم » مجموع الفتاوى [١٢/٣٥] .

(١) رواه الإمام أحمد في المسند [٦٦/٥،٤٣٢/٤] من حديث عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين من جهة عمران ابن حصين . وراجع : الصحيحة للألباني [١٧٩،١٨٠،١٨١] .

فلما نتدبر القرآن(١) نجد أن الله تعالى جعل الناس تقابل الإساءة بالإحسان ، لكن إذا لم يكن الإحسان مغريًا لصاحب الذَّنب بالذَّنب .

فإذا كان يُغْريه بالذَّنب والعفو يقتضي أنه يتجرأ فيجب أن نلزمه ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] حتى لا يتجرأ . فمن الحلم أن تستعمل الجهل دونه ، وإذا اتّسعت فى الحلم طُرق المظالم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وحُبّ الآخرة » :

لأن الدنيا معبر ، بدليل أننا أدركنا من كان أسن منا وانتقل ...

(١) وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري [٥٠٢٧] من حديث أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » .
قال الحافظ ابن حجر : « وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَامِع بَيْن تَعَلُّم الْقُرْآن وَتَعْلِيمه مُكَمِّل لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِهِ جَامِع بَيْن النَّفْع الْقَاصِر وَالنَّفْع الْمُتَعَدِّي وَلِهَذَا كَانَ أَفْضَل ، وَهُوَ مِنْ جُمْلَة مَنْ عَنَى سُبْحَانه وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] وَالدُّعَاء إِلَى اللَّه يَقَع بِأُمُورٍ شَتَّى مِنْ جُمْلَتهَا تَعْلِيم الْقُرْآن وَهُوَ أَشْرَف الْجَمِيع » . فتح الباري [٧٦/٩] .
وقال النووي : « فإذا شرع في القراءة فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة والدلائل عليه أكثر من أن تحصر وأشهر وأظهر من أن تُذكر فهو المقصود المطلوب وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب قال الله عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص : ٢٩] والأحاديث فيه كثيرة وأقاويل السلف فيه مشهورة ، وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح وقد صعق جماعة من السلف عند القراءة ومات » .
آداب حملة القرآن [٤٢/١] .

ففي واقع الحياة : ناس كانوا قبلنا وراحوا ، وبعد ذلك : إن كانوا مُنَعَّمين وهم أحياء يمكن أن يَزُول عنهم النعيم .

فأنا في الدُّنيا مُهدَّد : إما أن يفوتني النَّعيم وإما أن أفوت أنا بالموت النَّعيم .

فإذا بُشِّرت بأنك ذاهب إلى دار لا ينقطع عنك النعيم ولا تنقطع أنت عن النعيم لا موت فيها : ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٣] .

فاعقد المقارنة وخذ البديل الأقوى الأخلد : الآخرة .

وقوله ﷺ : « والجَزَع من الحِساب »

لأنك إذا عرفت أن نفسك عملت وعملت تخاف أن يأتي يوم الحساب وأنت مذنبًا .

اجعل حسابك دائمًا لك لا عليك وخاف من الحساب .

وقوله صلى الله عليه وسلم « وقصر الأمَل »

الأمل بدون حركة يعتبر تلصُّصًا ، مثل اللص ، الذي ينتفع بشيء بدون عرق ، ولذلك قالوا : « الأماني مطية النَّوكي » أي : الحمقى .

يريد أن يؤمل وبدون أي خطوة .

فإذا أردت أن تؤمل في النجاح ذاكر ، وإذا أردت أن تؤمل في أن تكون الأول ضاعف المذاكرة .

فإن كانت أقوالك تُؤَمِّل الشيء ولا تسعى الخطى إليه فهذا اسمه تَلَصُّص !!

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وحَسْن العمل » !

عندما تعمل عملاً حاول أن تتقنه ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللَّه يُحِبُّ إذَا عَمِل أحدكم عملاً أن يُتْقِنَهُ »(١) .

لأنه إذا كان العمل لك ؛ فأنت تعمل لنفسك ، وإن كان لغيرك فأنت تُشِيْع خيرك على الناس ، فقيمة كل امرئ مَا يُحْسِنُ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأنْهَاكَ أن تشتم مُسْلمًا » .

لأن هذا المسْلم بإسلامه اختار الخير الأعلى فلا يستحق أن يُذَمّ .

فمادام مسلمًا واختار العقيدة السليمة فَكُلّ سَيِّئة منه لابد أن تُحتمل مادام صدق في هذه المسألة .

وقوله ﷺ : « أو تُصَدِّق كاذبًا ، أو تُكَذِّب صَادِقًا » .

لأنك بهذا تَقْلب الحقائق .

فعندما تُصَدِّق الكَذّاب تُغْرِيه بالكذب .

وعندما تُكَذِّب الصَّادق تحجم لسانه عن الخير .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أو تَعْصِي إمامًا .. »

فالإمام إن كان عادلاً لماذا تعصيه ؟

(١) رواه أبو يعلى فى مسنده [٤٣٨٦] وقال محققه : إسناده لين ، والطبراني في الأوسط [٨٩٧] من حديث عائشة رضي اللَّه تعالى عنها ، وحسنه الألباني في الصحيحة [١١١٣] .

فالعدل يجب أن يُحَبّ إلا إذا كنت عاشقًا للظلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأن تُفْسِدَ في الأرض » :

اللّه تعالى خلق الكون بكل أجناسه جماد ونبات وحيوان وإنسان .

هذه الأربعة يخدم بعضها بعضا .

الجماد - وهو أدناها - يخدم الأعلى منه ؛ فيخدم النبات فيعطيه غذاءه ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

فالإنسان مَصَبّ خدمات الوجود كله .

فعندما ترى الجماد لا تقل : هذا جماد أنا أعلى منه ، أنا أنمو ولا ينمو ، أنا أتحرك ولا يتحرك .

افهم أن هذا الجماد يؤدي مهمة مطلوبة منه لحياتك وكرامتك .

فاللّه سبحانه حينما يطلب منا أن نَحُجّ بيته ولو مرة في العمر عند الإحرام يُخْرِجنا من هيئتنا التي يَتَمَيّز بها الناس ثَراءً وفخرًا .

ففي اللّباس : الجميع واحد سواسية .

وفي الصيد : لا نتعدى على حرية الحيوان فلا نصطاد صيد ، وفي النبات لا نقطع شجرًا .

إذن .. الحيوان رَحِمَهُ اللّه ، فلا نصطاده .

وكذلك في النبات : الشجر لا نقطعه .

بقي الجماد : يجعلك تطوف بالبيت ثم يقول لك : قَبّل هذا الحجر الذي هو من أدنى الوجود - الذي هو الجماد - .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « يا معاذ ! اذكر اللّه عند كل شجر وحجر ، وأَحْدِث لِكُلِّ ذَنْبٍ توبة » :

أى : لا تَغْفل فتجعل الذنوب تتراكم ، فكلما ذهبت نفسك للذنوب والشهوات وأرسلتك إليها ، فألحقها بتوبة ، وهذه التوبة يجب أن تكون نَصُوحًا .

فهناك فرق بين من يعمل السوء بجهالة بدون تخطيط وترتيب وبين من يخطط ويرتب له : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء : ١٧] بمجرد أن يقع في الذنب ندم ويحزن ويستغفر أصاب بجهالة بخلاف من خَطّطَ للذنب .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « السّر بالسّر والعلانية بالعلانية » :

السّر هو الأمر الذي لا تحب أن يَطّلع عليه أحدًا فكما لا تحب أن لا يطلع أحد على سِرّك لا تحاول أن تَتَلَصّص على أَسرار غيرك ؛ لأننا سنقول لك : خُذ سِرّي ونأخذ سرك والعلن بالعلن فلن ترضى !

فعامل الناس بمثل أن تحب أن يُعَاملوك به .

اللّهم لا تجعل الذنوب مُوجّهة لنا واجعلها طارئة علينا - إن كانت - واجعلنا نندم عليها حتى تُمْحى .

○○○

الوصية الثالثة

وصايا سبع جامعة من النبي ﷺ لأبي ذر

عن أبي ذر رضي الله عنه قال : أَمَرَنِي خَلِيلِي ﷺ بِسَبْعٍ :

١- « أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ ، وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ .

٢- وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي .

٣- وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ .

٤- وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا .

٥- وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا .

٦- وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ .

٧- وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ »(١) .

الشرح

○ قوله رضى الله عنه : « أَمَرَنِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ ، وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ »

(١) رواه أحمد فى المسند [٥/١٥٩] وابن حبان فى صحيحه [٤٤٩] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن من أجل سلام أبي المنذر ، والبيهقي [١٠/٩١] والطبراني في الكبير [٢ /١٦٤٩/ ١٥٦] وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد [٣/٩٣] رجاله ثقات إلا أن الشعبى لم أجد له سماعا من أبي ذر ، وقال [٨/١٥٤] : رواه الطبرانى فى الصغير والكبير فى حديث طويل والبزار ورجال الطبرانى رجال الصحيح غير سلام بن المنذر وهو ثقة وفي الأوسط [٦/٨] وفي الصغير [٢/٤٨] وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب [٢٣٢٠،٢٥٢٠،٣١٩٥] .

المسكين هو الرجل المتواضع المُتَذَلِّل الذي لا يبدو عليه شيء من الكبر بسبب مَا أُعْطِي من نِعَم الله ، بل كلما زَادَهُ الله نعمة كلما ازداد تواضعًا وانكسارًا ، وكلما تَوَاضَع وانكسر لقي من عطاء الله ما يحببه في هذا التواضع ؛ لأن الذي يتكبر ويزهو ولا تبدو عليه آثار المَسْكَنَة إنسان غافلٌ عن عظمة الله ، ولو أنه استحضر عظمة الله لاستحى أن يتكبر ؛ لأن الذي يتكبر ولا يكون ذليلاً خاضعًا لا يعرف نقائص نفسه ، لكن المسكين يعلم أن مواهبه لا تؤهله لأن يتكبر .

إذن .. الغنى هو الذي لا يشعر أنه غنى .

والعالم هو الذي لا يشعر أنه عالم ؛ لأنه كل يوم يستفيد شيئًا جديدًا .

فليس المسكين كما نظن هو المحتاج للقمة .

فمطلوبات الحياة أكثر من اللقمة .

فالإنسان يحب المساكين ، فإن كان في ناحية الاقتصاد فهو سيعطيهم من خير الله ، فهم كانوا سببًا في أن يأخذ جائزة من الله يوم القيامة لازم يحبه ؛ ولذلك كان الحسن البصري رحمه الله يبش في وجه المساكين فعندما يدخل عليه مسكين ويطلب منه شيئا يقول له : مرحبًا مرحبًا بمن جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة(١) .

(١) راجع كتاب : صفة الصفوة [٢/٩٥] حيث ذكر مثل هذا الكلام عن علي بن الحسين بن أبي طالب رضى الله تعالى عنهم .

إذا دخل عليك رجلان أحدهما غنى والآخر فقير ؛ غنى يجود بهدية ، وفقير يطلب عطية ! فانظر بمن تهش ؟!

فإن هششت للغنى الذي يجود بهدية فأنت من أهل الدنيا ؛ لأنك تُحِبُّ من يُعَمِّر لك دنياك .

وإن هششت للفقير فأنت من أهل الآخرة ؛ لأنك تحب من يقدم لك زادك في يوم القيامة ، فالمقياس عندك أنت .

فإذا أحببنا المَسَاكين ، وخير غير المسكين فاض علينا فلا يحقد الغير على المتفوق .

إذا كان هناك رجل ضعيف ، والضعف أعطاه مَسْكنة ، فإن رأى آخر قوى يقول هذا القوى يُعطيني أثر قوته ، فأنا أطلب من الله أن يزيده قوة ، لكن إن لم ينالني منه خير أطلب زوال هذه النعمة !

إذا لم يكن للمَرْء في دولة امرئ نَصِيبٌ ولا حظٌّ تمنى زَوَالها

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستطرق الخير من غير المسكين على المسكين في أي شيء من الأشياء التى تعينه على أن لا يتكبر وبالتالي يعرف هنا ذاته ؛ لأن الذي يتكبَّر لن يتكبَّر في ذاته لا يؤخذ منه شيء .

فمن تكبر بصحته يمكن أن تضيع منه بمرض فمن تكبر بغناء يمكن أن يفتقر . كل واحد يلحظ النقيض في أساس التكبُّر فيصير الكُلّ ذليلاً .

ولذلك يمتدح الله المؤمنين فيقول عنهم : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة ٥٤] ذليل عند المؤمن عزيز عند الكافر : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فالعطف على المسكين هو الذي يصنع استطراق النِّعم في الخَلْق .

وقوله رضى الله تعالى عنه : « وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي وَلَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي » .

لكي ترتاح فلا تنظر لمن هو أعلى منك(١) . انظر لمن هم دونك تجدهم أكثر من الذين هم فوقك ؛ لأن هذا قد يجعلك تطمح بلصُوصِيَّة .

وقوله رضى الله عنه : « وَأَمَرَنِي أَنْ أَصِلَ الرَّحِمَ وَإِنْ أَدْبَرَتْ » .

الرَّحم من الرَّحمة .

ومادام من الرَّحمة فلابد أن يكون للرحمة مُتَعَلَّق .

وإذا كان الحق سبحانه قد اشتق للرحيم اسمًا من أسمائه ، وقَالَ سبحانه :

(١) روى مسلم [٨/٢٩٦٣] عن أبي هُريرة رضى الله تعالى عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ » .

قال النووى فى شرح مسلم [٣٣٤/٩] مَعْنَى « أَجْدَر » : أَحَقّ ، وَ « تَزْدَرُوا » : تُحَقِّرُوا قَالَ ابْن جَرِير وَغَيْره : هَذَا حَدِيث جَامِع لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْخَيْر ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إِذَا رَأَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا طَلَبَتْ نَفْسه مِثْل ذَلِكَ ، وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْده مِنْ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى ، وَحَرَصَ عَلَى الِازْدِيَاد لِيَلْحَق بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبهُ . هَذَا هُوَ الْمَوْجُود فِي غَالِب النَّاس . وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُور الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونه فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَة اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَشَكَرَهَا ، وَتَوَاضَعَ ، وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْر » .

« أَنَا الرَّحْمَنُ وَهِيَ الرَّحِمُ ، شَقَقْتُ لَهَا اسْمًا مِنْ اسْمِي ، مَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ »(1) .

والحكمة في ذلك أن لا يكون هناك عائلة مستوفية القدرات في الحياة ، بل لابد لسنة الله في الكون أن يكون البعض أدنى والبعض أعلى .

فإذا ما استطرق الغنى عن الفقير أو الغني عند الفقير أو العالم عند الجاهل حصل توازن في الكون .

وقوله رضى الله تعالى عنه : « وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ أَحَدًا شَيْئًا » .

والمعنى : أن لا أحتاج إليهم .

أنا عندي ما يكفيني فالمطلوب أن أتأدب ؛ لأن السؤال معناه شكوى من الله أنه لم يعطيني .

فإذا لم يكن عندك فمن حقك أن تسأل بدليل أن الله تعالى جعل للسائل حق في مال الصدقة .

(1) رواه أبو داود [١٦٩٤] ، وأحمد فى المسند [١/١٩١،١٩٤] وقال الأرناؤوط : صحيح لغيره ، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين ، والبخاري في الأدب المفرد [٥٣] ، والحاكم فى المستدرك [٤/١٧٣] وصححه الألباني في الصحيحة [٥٢٠] من حديث عَبد الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : قال الله .. قوله : « شَقَقْت » أَيْ : أَخرجت وَأَخَذْت « وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ » : بِتَشْدِيدِ الْفَوْقِيَّة الثَّانِيَة أَيْ قَطَعْته مِنْ رَحْمَتِي الْخَاصَّة ، وَالْبَتّ الْقَطْع وَالْمُرَاد بِهِ الْقَطْع الْكُلِّيّ ، وَمِنْهُ طَلَاق الْبَتّ وَكَذَا قَوْلهمْ الْبَتَّة . كَذَا فِي كتاب : مرقاة المفاتيح للقاري .

وعندما لا يسئل يأثم ؛ لأنك إذا سألت أخذت حقًا لك قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٩] .

فإذا سأل الإنسان حقًا فليس بظلم لكن الممنوع أن تسأل ما يزيدك فوق ما تحتاج إليه(1) .

فالمطلوب : أن يَرْضَى الانسان بما قَسَمَ الله له(2) ، وأن يعيش الإنسان في مستوي مَا وُهِب أولاً فلا يَفْرِض له حياة ثم يخضع الدَّخل لها .

(1) وفي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ » رواه البخاري [١٤٧٥] ومسلم [١٠٤٠/١٠٣] .

قال النووي رحمه الله [٤/١٤٢،١٤٣] : « مُزْعَة لَحْم : بِضَمِّ الْمِيم وَإِسْكَان الزَّاي أَيْ قِطْعَة ، قَالَ الْقَاضِي : قِيلَ : مَعْنَاهُ : يَأْتِي يَوْم الْقِيَامَة ذَلِيلًا سَاقِطًا لَا وَجْه لَهُ عِنْد اللَّه . وَقِيلَ : هُوَ عَلَى ظَاهِره فَيُحْشَر وَوَجْهه عَظْم لَا لَحْم عَلَيْهِ عُقُوبَة لَهُ ، وَعَلَامَة لَهُ بِذَنْبِهِ حِين طَلَبَ وَسَأَلَ بِوَجْهِهِ ، كَمَا جَاءَتْ الْأَحَادِيث الْأُخَر بِالْعُقُوبَاتِ فِي الْأَعْضَاء الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْمَعَاصِي ، وَهَذَا فِيمَنْ سَأَلَ لِغَيْرِ ضَرُورَة سُؤَالًا مَنْهِيًّا عَنْهُ وَأَكْثَرَ مِنْهُ ، كَمَا فِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى « مَنْ سَأَلَ تَكَثُّرًا » . وَاللَّه أَعْلَم » .

(2) روى الترمذى [٢٣٠٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟ فقال أبو هريرة : فقلت : أنا يا رسول الله ، فأخذ بيدى فعد خمسا وقال : اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » . وحسنه الألبانى ، وأحمد فى المسند [٢/٣١٠] وقال الأرناؤوط : حديث جيد ، وهذ إسناد ضعيف لجهالة أبى طارق السعدى .

وقوله رضى الله عنه : « وَأَمَرَنِي أَنْ أَقُولَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا » :

مُرُّ الحق : قالوا عن الحق هو الشيء الثابت الذي يهفو إليه الناس حتى أصحاب الباطل عندما يكون لأحدهم شيء يقول : أنا أريد حقي فقط .

فالحق شيء ثابت ، وهناك أناس في المجتمع مبطلين يريدون أن يعيشوا عالة على المجتمع بلا جهد فيظلموا الناس .

إما إن يظلمهم بالكلمة أو بالفعل أو يظلمهم بسلب ما عندهم .

ومعنى هذا : أنه يستقِلّ هبة الله عنده ، ويستكثرها عند الغير ، فيأخذ من الغير ليزيد من نفسه .

فيقال لمن هذا شأنه : لقد تمرّدت مرتين :

الأولى : تمردت على وضعك بالنسبة لله تعالى .

الثانية : وتمردت على وضعك بالنسبة لعمل الله في الأقوى منك ، يعنى ظلمت في ناحيتين .

فالله تعالى يتخلى عنك في الحول والقوة ؛ لأنك ظلمت .

وقوله رضى الله عنه : « وَأَمَرَنِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ » :

لأن الخلق كلهم عيال .

فهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ابن ؛ لأن الفساد عند النفوس يأتي من هذه الأمور .

فالصاحبة : تغريه بالباطل .

والابن الذي دخل أبيه لا يؤدي طموحه يقول : ابن فلان عنده كذا وليس عندي فيضطر الأب أن يسرق ويرتشي ويظلم وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

فالحق دائمًا مُرّ ثقيل ؛ لأن الذي تقول له الحق أَلِفَ أن يغنم من الباطل ، فأنت تريد أن تُضيع غنيمته وكلامك يكون ثقيل على قلبه .

ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي : « النُّصح ثقيل ، فلا تُرسِله جَبَلاً ، ولا تجعله جدلاً » ، « الحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خِفّة البيان » يعنى عندما تنصح رجلاً فلا تخرجه عما أحب وأَلِف بما يَكْره من الأساليب . ولكن أخرجه عما أحب إلى شيء أحب مما أحبه .

وقوله رضى الله تعالى عنه : « وَأَمَرَنِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهُنَّ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ »

حتى لا تشك فيما وُهِبْت من قوة .

ولذلك عندما ترى قوة فيك قُلْ : هي هبة من الله تعالى .

ولا تقل كما قال قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ .

فكان جزاؤه كما أخبر ربنا سبحانه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ .

فالله سبحانه هو الواهب يريد منا أن نكون ذاكرين لقدرته ولا نغتر بأي نعمة قد تزول منا لأنها ليست ذاتية فينا .

إذن .. الشيء الموهوب من الغير غير مضمون .

الوصية الرابعة

الوصية بزيارة القبور والاعتبار بالموتى

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أوصاه فقال له :

« زُرِ القُبور تَذْكُرْ بها الآخرة ، واغْسِلْ المَوْتى ؛ فإنَّ مُعَالَجَة جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بليغةٌ ؛ وَصَلِّ عَلَى الجَنَائِز لَعَلَّ ذلك أن يُحزِنَكَ فإنَّ الحَزِين في ظِلِّ اللَّه يَتَعَرَّضُ كُلَّ خَيْرٍ »(١) .

الشرح

• قوله ﷺ : « زُرِ القُبور تَذْكُرْ بها الآخرة » :

القبور هي مطارح الأموات .

فالذي كان ممتلئاً حيوية وعافية ويملأ الناس صيتًا وَجَاهًا صار إلى القبر وفي التراب .

فإذا ما تذكرت هذا ، وتَذَكَّرت من سَبَقكَ في هذه المصارع لا تَقْرُب من الكبرياء ؛ لأنكَ سَتَصِيرُ إلى هذا التُّراب .

فمن كان كذا وكذا ومن كان كذا سوَّى بينهم التراب وأصبحوا سواء تحت الأرض ، فعلى الأقل يجب أن يكونوا سواء فوق الأرض .

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٣٦٦/٤،٥٣٣/١] وصححه ، واستدرك في الموضع الآخر بقوله : « قلت : لكنه منكر » ، وقد ضعفه الألباني في الضعيفة [٣٦٦٣] وفي ضعيف الترغيب والترهيب [٢٠٥٤] .

إن لم يكونوا سواء فيقال لهم : أنتم ستصيرون إلى سواء .

فالذي استعمل الحق وأخضع نفسه له ، عندما يصير تحت التراب يُريه اللَّه منزلته في الجنة التي تنتظره .

وأما الآخر يُريه اللَّه منزلته في النَّار التي تنتظره .

فإذا ذهبت إلى القُبور تذكر مَنْ كان وكيف صار إلى خير أم إلى شر ؟

هذا التساؤل ينفرك من الشر ويقربك من الخير .

وهذا الأمر يعمل في الإنسان توازن حيث يذل له كبرياء وجوده في الحياة وينتهي إلى شيء تدوسه الأقدام ويجوب في الأرض ولا ذِكْرَ له إلا أن يكون أهل خير يُذْكَرُ به .

وقوله رضى اللَّه تعالى عنه : « واغْسِلْ المَوْتَى ؛ فإنَّ مُعَالَجَة جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بليغةٌ »(١) .

الإنسان قبل أن يموت له قوة ذاتية ، وله حركة ذاتية ، وربما حاول في الحركة ، لكن عندما تؤخذ منه الروح التي تهب هذه الحياة من اللَّه يصبح شيئًا باليًا لا حركة له .

(١) قال المناوي قوله : « فإن معالجة جسد خاو » أي : فارغ من الروح عظة بليغة وأعظم بها من عظة قال الذهبي : هو دواء للنفوس القاسية والطباع المتكبرة وقيل لبعض الزهاد : ما أبلغ العظات ؟ قال : النظر إلى محلة الأموات . وقال بعضهم : لنا من كل ميت نشاهده عظة بحاله وعبرة بمآله . والموعظة بفتح الميم : الوعظ وهي : التذكير بالعواقب وقال بعضهم : الموعظة التذكير باللَّه ، وتليين القلوب بالترغيب والترهيب . فيض القدير [١٦/٣] .

فهذا الرجل الذي قال للناس : إنني إذا مِتُّ أحسنوا وضعي في الأرض خُذُوني فَجُروني بثوبٍ إليكم فقد كُنْتُ قبل اليوم صَعْبَ انْقِيادي لا أحد كان يستطيع أن يقربني أما الآن فهو يلعب في جسدي ويوجهني لأي مكان ، فسيطرتي على ذاتي انتهت .

ويجب أن تعلم بالتالي أن سيطرتك على غيرك لن تفيدك الآن .

وهذا الغير الذي كنت تُسَيْطِر عليه بقوتك وأنت حي أصبح هو الذي يُسيطِر عليك ، ويسيطر عليك أدنى الناس الذين يغسلونك .

فاعتبر بذلك أنك بروح الله شيئًا ولكن بسلب الروح لم تَعُد شيئا .

وأصبح الذي كنت تتحكم أنت في حركته أصبح يتحكم في سُكونك .

ولابد من الأمانة في غسل الميِّت ، فإذا رأى المُغسِّل شيئًا من عورته فلا يفضحه ، أو رأى تكوين في خلقته أو شيء غير طبيعي فلا يفضحه فليكن أمينًا على هذا ولا يقل رأيت فيه كذا .

وقوله رضى الله تعالى عنه : « وَصَلِّ عَلَى الجَنَائِزِ لَعَلَّ ذلك أن يُحْزِنَكَ فَإِنَّ الحَزِين في ظِلِّ الله يَتَعَرَّضُ كُلَّ خَيْرٍ »

صلاتك على الجنازة معناها أن تُصَلِّي لتدعو الله للميت بالرحمة .

فالذي كان [illegible] بالأمس أنت تسأل الله له الآن الرحمة ، أصبح محتاجًا إلى دعائك أنت أيها الحي .

وزيارة القبور تكون بأدبها ، فزُرِ القبور كلها لا تذهب لقريبك فقط فقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور أن ندعوا للجميع :

فكانَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إلى البَقِيعِ فَيَقُولُ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا ، مُؤَجَّلُونَ وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّه بِكُمْ لاحِقُونَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ »(١) .

وكَانَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم يُعَلِّمُهُمْ إذا خَرَجُوا إلى البقيع أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ : « السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّه بِكُمْ للاحِقُونَ ، أَسْأَلُ اللَّه لَنَا وَلَكُمُ العافِيَةَ »(٢) .

لَعَلَّك إنْ دعوت برحمة لأحد فيعمها اللَّه تعالى فيصيب بها كل الموجودين .

فالذي يُفسد ويعبث ويلهو نقول له : اذكر هذه المصارع وأنك ستلقى اللَّه مهما طال بك الأجل .

نسأل اللَّه أن لا يُلهم لساننا إلا الخير وأن يَكُفَّه عن كل شرّ ، وأن يجعل أسماعنا لا تسمع من ألسنة الناس إلا الخير آمين .

○○○

(١) رواه مسلم [١٠٢/٩٧٤] من حديث عائشة رضي اللَّه تعالى عنها .

(٢) رواه مسلم [١٠٤/٩٧٥] من حديث بريدة رضي اللَّه تعالى عنه .

الوصية الخامسة

الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع

عن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ .

فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

قَالَ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ »(١) .

الشرح

○ قوله صلى الله عليه وسلم : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ »

مادة التقوى : من اتقيت الشيء ، ومن القوة .

(١) رواه أحمد في المسند [١٢٦/٤، ١٢٧] وقال الأرناؤوط : حديث صحيح ورجاله ثقات ، وأبو داود [٤٦٠٧] ، والترمذي [٢٦٧٦] ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه [٤٢، ٤٤] وصححه الألباني ، والدارمي [٩٥/١] وهو حديث صحيح ؛ صححه غير واحد من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى [٣٠٩/٢٠] .

يعني لها مصدرين : من القوة أو من اتقاء الشيء . ويلتقيان معًا : فإذا أُخِذَت من القوة فيجب أن يُفْهَم أن القوة ليست في جلب الخير فقط ، ولكن في دفع الشَّر قبل جلب الخير ، ولذلك دفع المفسدة مقدم دائمًا على جلب المصلحة .

هب أن إنسانًا معه تفاحة يريد أن يرمى لي ، ورجل آخر يقف وبيده حجر يُريد أن يَقْذفني به فإلى أيهما أَمُدُّ يدي لأخذ التفاحة أم لِصَدّ الحجر. لصد الحجر أولاً ؛ لأن درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ولذلك يقول اللَّه تعالى في درء مفسدة الآخرة : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

فدرء المفسدة من الناس مقدم على جَلْب الخير لك بدخول الجنة .

فالأول ينجو من النار ثم يدخل الجنة ، إذن .. الأول أدرأ المفسدة .

فالتقوى معناها : أن تكون قويًا أو تكون مُتقيًا لمضرة تأتيك من الغير .

ومن عجيب أمر التقوى في القرآن أن اللَّه تعالى قال : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ، وفي آية أخرى قال : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ .

فهل التقوى هنا هي التقوى هنا ؟

اللَّه تعالى له صفات جمال ، وصفات جلال .

فصفة الجمال : هي التي تأتي بالخير .

والصفة التي ترهبك من الشر تسمى : صفة جلال .

من صفات الجلال : المحي المميت ، المعز المُذِلّ ، القابض الباسط ، الغفور الرحيم ، التَوّاب القهار ، ذُو البطش .

فالله سبحانه يقول : اتقوني ، والمعنى : إن لي صفات جمال ، وهبت لكم من الخير ، ولكن لي صفات جلال آخذكم إن لم تستقيموا على الخير ، فاجعلوا بين صفات جلالي وبينكم وقاية ، لا تجعلوني أغضب عليكم .

اجعل بين غضبي وبينك وقاية !

اجعل بين جبروتي وبينك وقاية !

وإذا كانت النّار جندي من جنود الله في العَذاب ، فكما قال : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ قال في النار : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ ؛ لأن من جُنود الله النار .

وهذا لا يُنافي المعية المطلوبة دائمًا « كن مع الله دائمًا » .

فكُن مع الله في الخير ، ولكن احذر الله أن يصيبك بصفات جلاله بما يَضُرّك .

﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : اجعلوا بينكم وبين الله وقاية بأن لا تقتربوا مِمّا حرّمه ، وكونوا في معيته فيما أحَلّه .

وإذا كانت النّار من جُنُود الله في العذاب فكما قال : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي : اتقوا صفات جلال الله ، ومن صفات جلاله أن يُعَذّبكم بالنّار .

فمرة يقول : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ ، ومرة يقول : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ﴾ ومادامت التقوى هذا هو معناها ، فانظر بماذا أمر أن نفعل فنفعله ، وبماذا قال لا تفعل ، فلا نفعله .

فخلاصة الدّين كله من أوّل آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم : افعل كذا ولا تفعل كذا افعل في الحركة الإيجابية ، ولا تفعل في الحركة السلبية .

فهناك إيجاب وسلب .

ومادام هناك إيجاب وسلب ، فنأخذ بالإيجاب النافع ، ونترك السّلب الضار .

هذا هو معنى التقوى ، يقول : أنا خلقتك وأنا أعلم بالغاية من خلقك ، ولكن افهم أن فِعْل الله لا يُعَلَّل تقول : خلقني لكذا .

هو لا يعلل بعلة تعود عليه هو ، ولكن يعلل بعلة تعود عليك أنت .

فعندما يقال : الله مُنَزّه عن العِلّة والغرض .

نقول : العِلّة التي تعود عليه ؛ فهو خالق قبل أن يَخْلُق الخَلْق ، وقوي قبل أن يخلق الضعيف .

فهو بصفات الكمال خلقك ، فلما خلقك لم يَزِدْهُ خَلْقُك صفة كمال(1) .

فالله سبحانه وتعالى يريد منا أن الذي قال : « افعله » أفعله ، والذي قال : « لا تفعله » لا أفعله .

ولذلك جاء في أصل الخلافة لآدم بهذا المنهج .

فهو سبحانه يريد منهجًا يَضْبط حركة الحياة كما في قوله جل وعلا : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] .

(1) يقول الإمام الطحاوي رحمه الله في شرح العقيدة الطحاوية : « ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباريء ، له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالق ولا مخلوق ، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم » .

لم يُنزِل آدم ثم أَنْزَل له منهج وقال له : سِرْ عليه ؛ لكن عَمِل له تجربة ،
فقال له : كل من كل الثمر لكن لا تقرب هذه الشجرة .

منهج : « افعل ولا تفعل » .

وطالما هو يسير على هذا المنهج فهو ماشٍ في أمان الله .

ولما أغواه الشيطان وأكل من الشجرة التي قال له عنها : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] .

فلما أكلا ماذا حدث لهما ؟ قال الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم :

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] .

انكشفت لهما سوءة أي عورة !

لم يكن هناك عورة ! .

ولكن ما الفرق بين فتحة الدبر وفتحة الفم هذه فتحة وهذه فتحة !

لماذا هذه عورة وهذه ليست بعورة ؟

لأن الإدخال ليس بعورة .

كأنك تدخل ما يطيبه وتستلذه .

وأما المخرج فهو عورة وهو الدبر ؛ لأنك تخرج الفضلات التي تؤلم بريحها ورائحتها ، ولذا لم تَخْرُج فستتعب وتمرض .

فعندما كان يأكل على منهج الله « كل من كل شيء ولا تأكل هذه » لم يكن عنده عورة ؛ لأنه يتغذى بطهي الله ، فيعطيه القوة والخير .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] . ليداريا عوراتهما .

وبذلك أعلمه : أنه لما خالف المنهج بدت عورتك والشيء الذي كنت تستلذه وتستطعمه تكرهه عند خروجه منك .

فيا آدم خذ من هذه « افعل ولا تفعل » لأنك إذا خالفت فسيحدث لك مثلما حدث من قبل .

فأنزل إلى الأرض وباشر مهمتك ، فكأن الله لم يرسل آدم ليباشر مهمته في الأرض إلا بعد التجربة ليعلم أنها حقائق واضحات .

وقوله ﷺ : « فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا » :

هذا الاختلاف ؛ لأن شهوات الدنيا ترتقي ، كنا إذا أردنا أن نذهب لمشوار نذهب ماشين ، ثم نركب مطية ، ثم جاءت سيارة ، ثم جاءت طيارة ، ثم جاء صاروخ ، والشيء الذى يحدث هناك بعيدًا أراه هنا الآن فالشهوات زادت فالإنسان إذا لم يتمسك بدينه فسيذهب لشهوات نفسه وهذا شيء كبير فالذي يعصمه أن يسير على منهج الله « افعل ولا تفعل » . لكي يسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » .

يديك ليست كافية ، بل بنواجذك ، عضّ عليها .

والمعنى : احرص على أن لا يفوتك شيء من سنتي ولا من سنة الخلفاء الراشدين من بعدي فهي وقاية من آفات حركة الحياة في الأرض التي ستتسع فيها مرام الشهوة ومرام الجاذبية ، ولن ينجو منها إلا الإنسان القوي الذي يستحضر عقوبة هذا ويستحضر جزاء الخير في منهج الله .

فزخارف الدنيا لا تنتهي كل يوم لها زخرف ، ولكن تزداد زخارف الدنيا كلما مالت النفس إليها ، فإياك أن تغرك هذه الزخارف بغاياتها الموحشة القبيحة .

○○○

الوصية السادسة

وصايا سبع بليغة

قال رسول الله ﷺ : أَوْصَانِي رَبِّي بِتِسْعٍ أُوصِيكم بها :

١ـ أَوْصَانِي بالإِخْلاصِ في السِّر والعَلانية .

٢ـ والعَدْل في الرِّضا والغَضَب .

٣ـ والقَصْد في الغِنَى والفَقْر .

٤ـ وأَنْ أَعْفُو عَمَّن ظَلَمَني .

٥ـ وأُعْطِي مَنْ حَرَمَني .

٦ـ وَأَصِلُ مَنْ قَطَعَني .

٧ـ وأَن يَكُون : صَمْتي فِكْرًا ، ونُطْقِي ذِكْرًا ، ونَظَري عِبَرًا »(١) .

الشرح

○ قوله ﷺ : « أَوْصَانِي بالإِخْلاصِ في السِّر والعَلانية »

(١) الفقرة الأخيرة من الحديث : رواها القضاعي في مسند الشهاب [١١٥٩] من طريق ابن عائشة عن أبيه قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : « إن ربي أمرني أن يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة » وذكره معضلا وإسناده ضعيف ، وراجع : فتح الوهاب بتخريج مسند الشهاب [٢٤٧/٢] وأما بقية جمل الحديث فيشهد لها الكثير من الأحاديث الصحيحة والحسنة .

الإخلاص : أن تكون حركة قَالَبِكَ موافقة لانفعالات قلبك .

أما أن يكون لِقَالَبِكَ حركة ولقلبك اعتقاد يُنَاقضها فهذا هو غير الإخلاص .

والإخلاص : هو الأمر الذي استأثر الله في الخلق فيقول سبحانه : « الإخلاصُ سِرٌّ من أَسْرَارِي أُودعه قَلْبُ من أَحْببت من عبادي لا يَطَّلع عليه مَلك فيكتبه ، ولا شيطان فَيُفْسده »(١) . فهو بين العبد وبين ربه .

تستطيع أن تكون بين الناس ورعًا إذا سمعت الآذان فتُهرول وتصلي وتكون في الصف الأول لكن قلبك ليس خالصًا في هذه المسألة .

يمكن لكي يقول الناس أنك ورعًا .

يمكن لتشجع الناس على أن يأتموك على حركة الحياة .

إذن .. عندما يكون القَالَب له اتجاه والقلب له اتجاه فهذا يقابله النِّفاق .

والنبي ﷺ يضرب لنا مثلاً في أن الإنسان قد يعمل العمل ليقال .

وفي الحديث : « قد عملت ليقال مُحسن ، وقد قيل »(٢) .

(١) قال العلامة الزرقاني رحمه الله : « حديث واه جدا أورده ابن العربي في المسلسلات ، ويكفي في رده الحديث الصحيح في كتابة الحسنة لمن هم بها ولم يعملها » شرح الموطأ [٢/٢٦٧،٢٦٨] .

(٢) يشير الشيخ رحمه الله إلى حديث أبي هُرَيْرَةَ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ =

وقوله صلى الله عليه وسلم : « والعَدْل في الرِّضا والغَضَب » :

العَدْلُ : هو إعطاء كل ذِي حَقٍّ حقَّهُ ، والذي يُفْسد العدل : الهوى ، أن : يميل هنا أو هنا .

والهوى يأتي لأنك تُريد أن تحكم لمن تُحِبُّ .

فلو كنت تُحب الحق مَا جَالَ في بَالك مَنْ تُحبه ، فمادمت تحب الحق فقف مع الحق .

= وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ، قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ » رواه مسلم [١٩٠٥/١٥٢] .

قال النووي رحمه الله : « قَوْله ﷺ فِي الْغَازِي وَالْعَالِم وَالْجَوَاد وَعِقَابهمْ عَلَى فِعْلهمْ ذَلِكَ لِغَيْرِ اللَّه ، وَإِدْخَالهمْ النَّار : دَلِيل عَلَى تَغْلِيظ تَحْرِيم الرِّيَاء وَشِدَّة عُقُوبَته ، وَعَلَى الْحَثّ عَلَى وُجُوب الْإِخْلَاص فِي الْأَعْمَال ، كَمَا قَالَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] وَفِيهِ : أَنَّ الْعُمُومِيَّات الْوَارِدَة فِي فَضْل الْجِهَاد إِنَّمَا هِيَ لِمَنْ أَرَادَ اللَّه تَعَالَى بِذَلِكَ مُخْلِصًا ، وَكَذَلِكَ الثَّنَاء عَلَى الْعُلَمَاء وَعَلَى الْمُنْفِقِينَ فِي وُجُوه الْخَيْرَات كُلّه مَحْمُول عَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى مُخْلِصًا » اهـ . مسلم بشرح النووي [٧/٥٩] .

العدل في الرضا : أن لا تحكم ظلمًا للناس الأحباء لك .

والعدل في الغضب : النّاس الذين غضبت عليهم لا تأخذ الحق منهم .

العدل في الرضا : لا يؤثر أن تحكم له .

والعدل في الغضب : أن لا يؤثر أن تحكم عليه .

دخل القاضي للخليفة المهدي عليه يومًا ، فقال له : يا أمير المؤمنين أقلني من القضاء ؟

قال : ومن للعَدْل غيرك يا عقبة بن يزيد ؟!

قال : والله يا أمير المؤمنين لقد اختصم إليّ شخصان في أمرٍ لم أستطع التوفيق بينهما فيه ، وكلما أجّلته ليتصالحا استمرا على الغضب وقاما ، فبينما أنا يومًا في البيت إذ جاء الخادم بطبق من الرُّطَب - لأن الناس عَلِمُوا أنّي أحبُّ الرُّطب - وكان الرُّطب في بواكيره .

فقلت للخادم : ممن هذا ؟

فقال : رَجُل هيئته كيت وكيت .

فعلمت أنه أَحَدُ المُتَقَاضِيين . فقلت لخادمي : رُدّ له الطَّبق ، فرددته فلما جَلَسْتُ اليوم للقضاء دخل عَلَيّ : فوالله ما استويا في نظري وإن كنت قد رَدَدت الطَّبق !! علمتُ أن قلبي لا يتحمل !!

إذن .. فالرضا لا يجعلك تحكم بالظلم لحبيبك ، والغضب لا يمنعك أن تحكم بالحق وإن كان له .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « والقَصْد في الغِنَى والفَقْر »

القصد : معناه أن الشيء يكون منتصد إذ أن لكل شيء طرفان : وكلا طرفي الأمور ذميم .

ولذلك خيرُ الأُمور الوَسَط ؛ لأن لو كان في الطرفين خير فقد أخذنا من كل منهما .

كُن مُقْتصدًا في كل أُمورك ، حتى في « الصَّدقة » ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤١] .

فربما تحتاج إذا تصدقت بالكل وتندم !!

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

فخذ الوَسَط ؛ لأنك لو بسطتها كل البسط وأخذت كل دخلك اليوم ، لن يأتي يوم وترتقي فيه في حياتك فتبنى لك مَسْكنًا أو تشتري سيارة .

أما المقتصد : فيبني مسكنًا ويشتري سيارة وتأتي لتنظر إليه فتتحسَّر .

وَأما الغل : وهو القبض فملوم ؛ لأن قبض اليد يمْنع حركة السُّوق ؛ لأن المنتج والمستهلك عندما لا يجد من يبسط ويَصْرف تتعطل المصالح وتأتي البطالة .

فالله سبحانه وتعالى يريد القصد في كل شيء ، قال تعالى : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وقوله ﷺ : « وَأَنْ أَعْفُو عَمَّن ظَلَمني ، وأُعْطِي مَنْ حَرَمني »

لأنك لو أعطيت من يُعطيك فهذه مكافأة ، أما العظمة في الحق فهي أن تُعطي من حَرَمَك .

فهنا أنت تطلب من الله بخلاف المكافأة وهي أن تعطى من أعطاك .

فالإعطاء لمن حرمك هنا هو لله سبحانه وتعالى .

وقوله ﷺ : « وأن يكون : صَمْتي فِكْرًا ، ونُطْقي ذِكْرًا » .

لا تكثر من الكلام المفيد وغير المفيد .

لا تنطق إلا بسبحان الله ، وبذكر الله .

وإذا صمت فلا يكن صمتك الصمت الأَبْلَه لا تفكر في شيء .

فالصمت المفيد : عندما تُسكّن الجوارح ، والعقل يعمل يُفكّر ، فلا تزداد إلا عبرة واتعاظًا ، وطاعة لله في أمره ونهيه والتماسًا للخير .

فالمطلوب : النظر للاعتبار والصمت للتفكير والكلام لإشاعة الخير .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ونظري عبرًا » .

النَّظر في الكون هو الدليل الأول على توحيد الله .

تنظر إلى آيات الله ، فتجد أنه لم يدع أحد من الملاحدة أنه خلق الكون ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ .

وهذا أمر منطقي ؛ لأن المخلوق طرأ على الموجود .

فالطفل الصغير الذي لا حول له ولا يفكر ، جاء إلى الحياة فوجد شمس وقمر ، فإذا كان هو طرأ على الموجود وهو لا يُدْرك شيئًا هل يدعي أنه هو الذي عمله ؟

كذلك لم يدع أحدًا أنه خلق الناس أو خلق نفسه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر : ٣٨] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

فالذي يوصلنا لهذا هو النظر في الكون والاعتبار .

لا تنظر إلى شيء إلا وتعرف العبرة فيها والقدرة .

فمثلًا هذه « اللمبة » التي اخترعها « إديسون » عُرْضَة للتلف والصيانة .

أما الشمس التي خلقها الله وتنير الكون منذ خلقه سبحانه لا نطولها لكي نعمل لها صيانة ولا نعرف أن نصل إليها .

فالذي خلقها له قدرة تناسب هذه العظمة

وصدق الله العظيم : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] .

وكذلك « الإنسان » الذي وهبه الله الحياة على الأرض يحتاج لأشياء تُقوّم حياته ، فمقومات حياته ثلاث : أن يُطعم ويشرب ويتنفس .

فالطعام : يمكن الصَّبر شهر .

إن جحدك أحد يمكن أن يحن عليك آخر .

والشراب : أقل ، عشرة أيام مثلاً .

وأما النَّفس : ولا لحظة ، شهيق وزفير إن توقف تموت .

إن ملك أحدًا الطعام والشراب ، فمن رحمة اللّٰه تبارك وتعالى أن لا يملك أحدًا الهواء .

اللّٰهم إنا نسألك أن تصرف كل طاقاتنا إليك نظر اعتبار ، وصمت اعتبار وتفكر ، ونطق خير نشيعه في الناس .

○○○

الوصية السابعة

خمس وصايا نافعات

عن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : مَنْ يَأْخذ عنِّي هذه الكلمات فيعمل بهن أو يُعَلِّم من يعمل بهنَّ ؟ فقال أبو هريرة : قلت : أنا يا رسول اللّٰه فأخذ بيدى فَعَدَّ خمسًا فقال :

١. اتَّقِ المحَارم تَكُن أَعْبَدَ النَّاس .
٢. وارْضَ بما قَسَمَ اللّٰه لك تَكُن أغنى النَّاس .
٣. وأحْسِن إلى جَارِك تكن مؤمنًا .
٤. وأحبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مُسْلِمًا .
٥. ولا تُكْثِر الضَّحِك فَإِنَّ كَثْرة الضَّحِك تُميتُ القلب »[1] .

الشرح

○ **قوله صلى اللّٰه عليه وسلم : « اتَّقِ المحَارم تَكُن أَعْبَدَ النَّاس » :**

كل شيء حرمه اللّٰه ابتعد عنه ، تسلب عن نفسك المعاصي أولاً ثم تقبل على الطاعة ثانيًا .

(١) رواه الترمذي [٢٣٠٥] ، وابن ماجه [٤٢١٧] وحسنه الألباني في الصحيحة [٩٣٠] . وأحمد في المسند [٢/٣١٠] وقال الأرناؤوط : حديث جيد ، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي طارق السعدى .

هناك إيجاب وسلب .

دَرْء المعصية أولاً ؛ لأنها قد تكون ضرر على غيرك فكف عنها أولاً .

وقوله ﷺ : « وارْضَ بما قَسَمَ اللهُ لك تَكُن أغنى النَّاس » .

الغني : هو استغناء النفس عن التطلع لما في يد الغير لما لا يوجد عندك .

فإذا أنت تربيت على القناعة لن تنظر إلى نعمة غيرك .

وفي الحديث عنه ﷺ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »(١) .

وغنى النفس : أن أقنع بما قسمه الله لي ولا أحتاج إلى الغير .

ومعنى الغنى : أن أستغنى عن النَّاس ، وهذا هو الغنى الكامل .

وأن لا أتطلع لما في يد الغير أن أستغني عن الطلب من الناس ؛ لأنك حين تعلم أن الله هو الذي استدعاك إلى الوجود تعلم أنك إذا دعوت واحدًا إلى بيتك لم يأتك ضيفًا بل أنت الذي دعوته وعلى قدرتي .

ومادام الله هو الذي استدعاني للوجود فقد ضمن لي رزقي ، وضمنه على قدرته .

(١) رواه البخاري [٦٤٤٦] ، ومسلم [١٠٥١/١٢٠] من حديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . قال النووي رحمه الله في شرح مسلم [١٥٢/٤] : « الْعَرَض هُنَا بِفَتْحِ الْعَيْن وَالرَّاء جَمِيعًا ، وَهُوَ مَتَاعُ الدُّنْيَا . وَمَعْنَى الْحَدِيث : الْغِنَى الْمَحْمُود غِنَى النَّفْس وَشِبَعهَا وَقِلَّة حِرْصهَا ، لَا كَثْرَة الْمَال مَعَ الْحِرْص عَلَى الزِّيَادَة ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلزِّيَادَةِ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا مَعَهُ فَلَيْسَ لَهُ غِنًى » .

فالعاقل هو الذي يعمل حياته على وُفق ما رُزِق .

فلا يُحاول أن يعمل لنفسه مَصْرِفًا فوق الوَارِد . فرحم الله امرأ عرف قَدْر نفسه . والذي يُريد أن يرفع مُستوى حركته في الحياة ويرفهها يزيد من عمله في عمل الخير .

فالرِّزق هو ما انتفع به ، فقد يكون معك وليس رزقك ؛ يضيع منك ، يُسْرق منك ، وقد تأكله وليس لك فتتقيأه ؛ وتأتى حشرة فتأكله .

وقد يتمثل دمًا بعد الهضم فتُجْرح وينزل منك الدم .

ومادام الرزق ما انتفع به ، ننظر للنفع ، والنفع ما به قوام الوجود .

والنبي ﷺ حَدَّد هذه المسألة فقال : « مَنْ أَصْبَحَ منكم مُعَافًى في بدنه آمنًا في سِرْبه ، عنده قُوت يومه ، فكأنما حِيزَت له الدنيا »(١) .

كيف أُشْغَل برزق وأنا لا أضمن أن أعيش غدًا .

(١) رواه الترمذي [٢٣٤٦] ، وابن ماجه [٤١٤١] ، والبخاري في الأدب المفرد [٣٠٠] وحسنه الألباني في الصحيحة [٣٠٠] .

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي [٢٣٤٦] : « آمِنًا » أَيْ : غَيْرَ خَائِفٍ مِنْ عَدُوٍّ « فِي سِرْبِهِ » الْمَشْهُورِ كَسْرِ السِّينِ أَيْ فِي نَفْسِهِ ، وَقِيلَ : السِّرْبُ الْجَمَاعَةُ ، فَالْمَعْنَى فِي أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ ، وَقِيلَ بِفَتْحِ السِّينِ أَيْ فِي مَسْلَكِهِ وَطَرِيقِهِ ، وَقِيلَ : بِفَتْحَتَيْنِ أَيْ فِي بَيْتِهِ . « مُعَافًى » اسْمُ مَفْعُولٍ مِن بَابِ الْمُفَاعَلَةِ أَيْ صَحِيحًا سَالِمًا مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْقَامِ « فِي جَسَدِهِ » أَيْ : بَدَنِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا « عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ » أَيْ : كِفَايَةُ قُوتِهِ مِنْ وَجْهِ الْحَلَالِ « فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ » بِصِيغَةِ الْمَجْهُولِ مِنَ الْحِيَازَةِ وَهِيَ الْجَمْعُ وَالضَّمُّ ، وَالْمَعْنَى فَكَأَنَّمَا أُعْطِيَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا .

والله تعالى يُريد أن يستصحب هذه ، فيقول في الحديث القدسي : « يا ابن آدم خَلقتك للعبادة فلا تلعب »(١) .

والعبادة ليست الصَّلاة والصوم فقط ، وإنما العبادة هي كل حركة نافعة في الوجود ، بدليل حين يدعوني اللَّه للصلاة من يوم الجمعة يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [الجمعة] .

أخرجني من عمل إلى عبادة ، ثم ردّني من عبادة إلى عمل ، فإن خالَفته فقد عَصيته .

فالحركة في الأرض هي التي تقوم بعمارة الأرض .

مثلا : لكي استر عورتي للصلاة أريد شراء مترين من القماش اشتريهم من التاجر الصغير ، وهو يقوم بالشراء من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة يشتري من المنسج ، والمنسج جاء به من المغزل ، والمغزل جاء به من المحْلج ، والمحلج جاء به من الزُّراع .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره [٢٣٩/٤] عند قول الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وصدره بقوله : « وقد ورد في بعض الكتب الإلهية » .

فلكي تستر عورتك في الصلاة انظر كم حركة في الوجود .

فكل حركة نافعة في الوجود عبادة .

ثم يقول جل جلاله : « وقسم رزقك فلا تتعب » ليس تَعَبُ الجسم وإنما تَعَبَ العَقل والفِكر .

ثم يقول سبحانه : « فإن أنت رضيت بما قسمته لك صلحت قلبك وبدنك وكنت عندي عبدًا محمودًا ، وإن أنت لم ترض بما قسمته لك وعزتي وجلالي لأُسلِّطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البرية ثم لا ينالك إلا ما قسمته لك وكنت عندي عبدًا مذمومًا .

يا ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أُعي بخلقهن أيعييني رغيف عيش أسوقه لك ؟

يا ابن آدم أنا لم أنس من الرزق من عصاني فكيف بمن أطاعني يا ابن آدم لا تطلب مني رزق غدًا لأني لم أطالبك بعمل غد » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأَحْسِن إلى جَارِكَ تكن مؤمنًا .. » .

لأن الجار هو المفزع الأول لي عند الشدائد ، وهو المُطَّلع على عوراتي وهو المواجه لي في كل حركة من حركات حياتي سارة أو مشينة .

فإذا أنت أحسنت جوار جارك - وهو مطلوب منه أيضًا أن يُحْسِن جوارك - فستأخذ إحسان هنا ومن هنا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولا تُكْثِر الضَّحِك فَإِنَّ كَثْرة الضَّحِك تُميتُ القلب » .

الضحك دليل الطرب بشيء أو دليل الاستحسان .

اضحك ولكن بقدر .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك ولكن كان ضحكه التبسم لا القهقهة (١) .

فهناك حاجات تلاحقك وهناك أشياء أنت مقصر فيها وهي تُبكي والقلب يموت إن شغل بغير الله .

اللهم إني أسألك أن لا تُميت قلوبنا عن ذِكرك ، وأن تحييها بإيمانك وفيض تجليك عليه حتى يشع طاعة في جميع جوارحنا .

(١) وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ : مَا كَانَ ضَحِكُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا تَبَسُّمًا » رواه الترمذي [٣٦٤٢] وصححه الألباني .

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي [٣٦٤٢] قَوْلُهُ : « إِلَّا تَبَسُّمًا » أَيْ : لَا يَزِيدُ عَلَى التَّبَسُّمِ . قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : التَّبَسُّمُ مَبَادِي الضَّحِكِ وَالضَّحِكُ انْبِسَاطُ الْوَجْهِ حَتَّى تَظْهَرَ الْأَسْنَانُ مِنَ السُّرُورِ فَإِنْ كَانَ بِصَوْتٍ وَكَانَ بِحَيْثُ يُسْمَعُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ الْقَهْقَهَةُ وَإِلَّا فَهُوَ الضَّحِكُ ، وَإِنْ كَانَ بِلَا صَوْتٍ فَهُوَ التَّبَسُّمُ وَتُسَمَّى الْأَسْنَانُ فِي مُقَدَّمِ الْفَمِ الضَّوَاحِكَ وَهِيَ الثَّنَايَا وَالْأَنْيَابُ وَمَا يَلِيهَا وَتُسَمَّى النَّوَاجِذُ ، وَهَذَا الْحَصْرُ إِضَافِيٌّ أَيْ بِالنِّسْبَةِ لِلْغَالِبِ لِمَا تَقَرَّرَ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم ضَحِكَ أَحْيَانًا حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ إِلَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ » .

الوصية الثامنة

الوصية بذكر الله بعد الصلاة

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ : « يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، فَقَالَ : « أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »(١) .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ .. »**

الشيء إذا أردت أن تؤكده لمن يظن أن الكلام ليس حقًا ، تؤكده باليمين .

إذن وسائل التأكيد نوعين : إما البينة ، وإما اليمين ، فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

فأنت لا تحلف على شيء إلا إذا كنت تريد أن تؤكد هذا الشيء .

فالحق سبحانه وتعالى يقسم بما شاء على من شاء ؛ يقسم بالجماد : ﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ ﴾ ، ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ ﴾ .

(١) رواه أبو داود [١٥٢٢] ، والنسائي في المجتبى [١٣٠٣] وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب [١١٥] : إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات ، وأحمد في المسند [٢٤٧/٥] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الصحيح غير عقبة بن مسلم .

ويقسم بالملائكة كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴾ أي : شيء يقسم به الله ؛ لأنه يعرف سر الجمال فيه ، كل شيء ربنا خلقه يعرف سر الجمال فيه ، فهو يحلف به .

لكن أنا عندما أحلف لا أعرف سر الأشياء ، فلا أحلف إلا بالله ؛ لأن هذه عظمته فوق كل عظمة ؛ لأن كل عظمة دون عظمة الله موهوبة ، وكل عظمة دون عظمة الله مسلوبة . فأنا ليس عندي إلا هو .

فعندما يأتي الإنسان يقسم على أنه يحب شيء فهو دليل على أنه يؤكد الحب . ما هو الحب ؟

الحب : هو توجه القلب إلى المحبوب توجهٌ يربط نفعه بنفعك ومضرتك بمضرته .

هذا معنى الحب . لكنه له مرحلتين :

حب عقلي ، وحب عاطفة .

حب العقل : هو ما يرجح العقل نفعه ، كما يحب المريض الدواء المر ، أنا لا أحب الدواء المر بعاطفتي ؛ لأنني أكرهه ، ولكنني أحبه بعقلي لأنه سبب للشفاء ، فهذا اسمه حب عقلي .

ولكن حب العاطفة ليس له دليل عقلي ، أنا أحب ابني حتى ولو كان غبيًا ، وأكره ابن عدوي وإن كان ذكيًا . فهذا فيه حب العقل وهذا حب العاطفة .

فلما قال رسول الله ﷺ لسيدنا عمر : « ما يكمل إيمان أحدكم حتى

أكون أحب إليه من نفسه » وعمر رجل صادق مع نفسه ، قال له : يا رسول الله أنا أحبك عن مالي وولدي ؛ أما عن نفسي فلا(١) .

انظر إلى الصدق !!

(١) روى البخاري [٦٦٣٢] من حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ : « الْآنَ يَا عُمَرُ » .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « فَهَذِهِ الْمَحَبَّة لَيْسَتْ بِاعْتِقَادِ الْأَعْظَمِيَّة فَقَطْ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ حَاصِلَة لِعُمَر قَبْل ذَلِكَ قَطْعًا . وَمِنْ عَلَامَة الْحُبّ الْمَذْكُور أَنْ يُعْرَض عَلَى الْمَرْء أَنْ لَوْ خُيِّرَ بَيْنَ فَقْد غَرَض مِنْ أَغْرَاضه أَوْ فَقْد رُؤْيَة النَّبِيّ ﷺ أَنْ لَوْ كَانَتْ مُمْكِنَة ، فَإِنْ كَانَ فَقْدهَا أَنْ لَوْ كَانَتْ مُمْكِنَة أَشَدّ عَلَيْهِ مِنْ فَقْد شَيْء مِنْ أَغْرَاضه فَقَدْ اِتَّصَفَ بِالْأَحَبِّيَّةِ الْمَذْكُورَة ، وَمَنْ لَا فَلَا . وَلَيْسَ ذَلِكَ مَحْصُورًا فِي الْوُجُود وَالْفَقْد ، بَلْ يَأْتِي مِثْله فِي نُصْرَة سُنَّته وَالذَّبّ عَنْ شَرِيعَته وَقَمْع مُخَالِفِيهَا . وَيَدْخُل فِيهِ بَاب الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر . وَفِي هَذَا الْحَدِيث إِيمَاء إِلَى فَضِيلَة التَّفَكُّر ، فَإِنَّ الْأَحَبِّيَّة الْمَذْكُورَة تُعْرَف بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَحْبُوب الْإِنْسَان إِمَّا نَفْسه وَإِمَّا غَيْرهَا . أَمَّا نَفْسه فَهُوَ أَنْ يُرِيد دَوَام بَقَائِهَا سَالِمَة مِنْ الْآفَات ، هَذَا هُوَ حَقِيقَة الْمَطْلُوب . وَأَمَّا غَيْرهَا فَإِذَا حَقَّقَ الْأَمْر فِيهِ فَإِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ تَحْصِيل نَفْع مَا عَلَى وُجُوهه الْمُخْتَلِفَة حَالًا وَمَآلًا . فَإِذَا تَأَمَّلَ النَّفْع الْحَاصِل لَهُ مِنْ جِهَة الرَّسُول ﷺ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ ظُلُمَات الْكُفْر إِلَى نُور الْإِيمَان إِمَّا بِالْمُبَاشَرَةِ وَإِمَّا بِالسَّبَبِ عَلِمَ أَنَّهُ سَبَب بَقَاء نَفْسه الْبَقَاء الْأَبَدِيّ فِي النَّعِيم السَّرْمَدِيّ ، وَعَلِمَ أَنَّ نَفْعه بِذَلِكَ أَعْظَم مِنْ جَمِيع وُجُوه الِانْتِفَاعَات ، فَاسْتَحَقَّ لِذَلِكَ أَنْ يَكُون حَظّه مِنْ مَحَبَّته أَوْفَر مِنْ غَيْره ؛ لِأَنَّ النَّفْع الَّذِي يُثِير الْمَحَبَّة حَاصِل مِنْهُ أَكْثَر مِنْ =

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ » (١) .

وقال أيضًا صراحة حق ، وإلا كان يقدر أن يقول له : نعم يا رسول الله ولكن جاء بالواقع الذي في عاطفته .

ما الذي جعل عمر يقول له : الآن أحبك يا رسول الله ؟

لأني عندما أؤكد أنني أحبه فكأنه لا يعني حب العاطفة ؛ لأن حب العاطفة لا يقنن له ، كأنه أراد الحب العقلي أنا عندما أقول أنا – في جاهليتي – لولا رسول الله كنا نهلك فأنا أحبه بعقلي .

= غَيْرِه ، وَلَكِنَّ النَّاس يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ اسْتِحْضَار ذَلِكَ وَالْغَفْلَة عَنْهُ . وَلَا شَكَّ أَنَّ حَظَّ الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى أَتَمّ ؛ لِأَنَّ هَذَا ثَمَرَة الْمَعْرِفَة ، وَهُمْ بِهَا أَعْلَم ، وَاللَّه الْمُوَفِّق .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ : كُلّ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيمَانًا صَحِيحًا لَا يَخْلُو عَنْ وِجْدَان شَيْء مِنْ تِلْكَ الْمَحَبَّة الرَّاجِحَة ، غَيْر أَنَّهُمْ مُتَفَاوِتُونَ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْتَبَة بِالْحَظِّ الْأَوْفَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا بِالْحَظِّ الْأَدْنَى ، كَمَنْ كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي الشَّهَوَات مَحْجُوبًا فِي الْغَفَلَات فِي أَكْثَر الْأَوْقَات ، لَكِنَّ الْكَثِير مِنْهُمْ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم اشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَته ، بِحَيْثُ يُؤْثِرهَا عَلَى أَهْله وَوَلَده وَمَاله وَوَالِده ، وَيَبْذُل نَفْسه فِي الْأُمُور الْخَطِيرَة ، وَيَجِد مُخْبِر ذَلِكَ مِنْ نَفْسه وِجْدَانًا لَا تَرَدُّد فِيهِ . وَقَدْ شُوهِدَ مِنْ هَذَا الْجِنْس مَنْ يُؤْثِر زِيَارَة قَبْره وَرُؤْيَة مَوَاضِع آثَاره عَلَى جَمِيع مَا ذُكِرَ ، لِمَا وَقَرَ فِي قُلُوبهمْ مِنْ مَحَبَّته . غَيْر أَنَّ ذَلِكَ سَرِيع الزَّوَال بِتَوَالِي الْغَفَلَات ، وَاللَّه الْمُسْتَعَان . انْتَهَى مُلَخَّصًا من فتح الباري [٦٠،٥٩/١] .

(١) رواه البخاري [١٤] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهُ .

وقد يتسامى هذا الحب العقلي فتحبه بعاطفتك .

فيوجد حبين اثنين : حب عقلي وحب عاطفي .

وقوله ﷺ : « أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » .

حين يدعو الإنسان بهذه الدَّعوة بعد عمل الطَّاعة في الصَّلاة ؛ يدلُّ على أنه استلذَّ من الصلاة ، وانبسط منها ، وأدرك فيها فيوضات الله عليه .

فيقول له : يا رب لا تحرمني هذه اللذة بعدها ، واجعلني أستمر في عملها . فيكون هذا دليل منه على أن الله تعالى عمل فيه جميلاً ، في أنه هداه لأن يصلي .

ولا يكون جميلاً إلا إذا أدرك لها فيوضات وإشراقات في نفسه ؛ فإن كان قد تعِبَ من شيء فإنه يزول ، وإن كان يفكر في شيء فإنه ينتهي .

ولذلك كان الرسول ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة (١) .

يعني إذا كان الأمر يعجزه يقوم إلى الصلاة ؛ لماذا ؟

لأنه توجد أشياء لا تقوي أسبابك عليها ، فأنت لست وحدك في الكون ، فأنا لي رب ، وأنا آمنت بهذا الرب ، والرب ليس عنده أسباب ؛ فوق الأسباب فإذا كانت هذه المسألة عاجزة عن سببي أنا ، لكن لا يعجز عنها سبب الله ، فتذهب للصلاة لهذا الرب .

(١) روى أبو داود [١٣١٩] من حديث حُذَيْفَةَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى . وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير [٤٧٠٣] ، وأحمد في المسند [٣٨٨/٥] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

فإذا حزبك أي أمر ، فلا تسلم نفسك للأمر ، بل قم وتوضأ وصَلِّي ، فتلتفت فتجد ربك قد جاء لك بالفرج ؛ لأنك لجأت إلى ركن شديد ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

والإنسان وهو ساجد ، يكون في هذا الموضع أقرب إلى الله من أي مكان آخر [1] ؛ لأن الوجه اسمه قامة ، وواجهة يواجه بها الناس ، وأشرف شيء فيه ؛ بدليل أنني إذا سرت وجاءت سيارة فلطختني بالوسخ ، فما أفعل ؟ أول شيء أعمل هكذا على وجهي لأنفي عنه الوسخ ، أما ملابسي أو غيرها فلا يهم .

فالوجه هو أشرف شيء . ولذلك يقولون : « مرفوع القامة » .

فإذا كانت هذه القامة المرفوعة التي تتميز بها في الناس ؛ قد وضعتها في الأرض لله ، فقد دلَّ ذلك على أنَّ الله أكبر من القيمة التي تصورها ، وأنك إذا ما سجدت لله خضوعًا زادك الله به فيضًا وزادك الله به رفعة وعزة .

وفي الحديث : « أرحنا بها يا بلال !! » [2] .

(1) روى مسلم [٢١٥/٤٨٢] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » والنسائى فى المجتبى [١١٣٧] ، وأبو داود [٨٧٥] ، وأحمد فى المسند [٤٢١/٢] .

(2) روى أبو داود [٤٩٨٥] عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ : لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا » وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير [٧٨٩٢] .

لأننا قد قلنا : إذا كان هناك أمورًا تُعزّ عن أسبابها - أسبابي لا تقدر عليها - فما الذي يخلصني منها ؟

أن أذهب إلى الركن الشديد القادر على كل شيء ، وأقف بين يدي الله .

أرحنا بها - ليس منها - يعني كأنني عندما أقف بين يدي الله أرتاح بهذه الوقفه من متاعبي في الدنيا . لماذا ؟

لأنني ذهبت إلى ربٍّ قادر ، فوق أسبابي ، ويقدر أن يعمل لي الأشياء التي لا تخطر على بالي .

فالصلاة هي الصلة بين العبد وربه .

ومن ميزاتها : أنها لا تسقط أبدًا ، حتى ولو يصلي بخاطره ؛ إن لم يقدر على أن يحرك شيء فإنه يصلي بخاطره .

والصلاة فُرضت بالمباشرة ، وغيرها فرض بالوحي .

فعندما تفرض بالمباشرة ، يعني تعال يا محمد عندي لأنني سأفرض عليك .

وفيها كل أركان الإسلام .

إذن نستطيع أن نقول : إن هذه الصلاة هي عماد الدين

وأنت تعيش في مُلك الله بنعم الله ، فأنت في كل الوجود مع نعمة الله .

وأنا أريد أن أجعلك مرة مع المنعم نفسه .

مثلا عندما يقولون : جاء رجل كبير جدًّا ، ورجل أهل خير ، وعمل وليمة للبلد كلها ، فدخلت الساحة فوجدت وليمة فيها كل ما لذ وما طاب وكذا وكذا .

فمن الناس من ينشغل بالنعمة ، ومن الناس من يقول : من هذا الرجل الذي عمل هذه الوليمة ؟ ويترك الأكل ويترك الشرب ويترك كذا وكذا .

فهناك فرق بين أن تكون مع النعمة وبين أن تكون مع المنعم .

في الصلاة أنت مع المنعم ، وفي غير الصلاة أنت مع النعمة .

ولذلك فهو سلوى المريض . يقول هناك : « مرض فلان فلم تعده ، أما علمت أنك لو عُدته لوجدتني عنده » ؟![1] .

فكأن المريض مع الله ، والصحيح مع نعمة الله .. وفرقٌ بين الأمرين .

ولذلك تجد مريضًا الناس قد تعبوا من أجله وهو مع ذلك يضحك !! لو لم يكن يوجد أنسٌ يملؤه بأنه في معية الله لما ضحك ..

فأنت المتعب ، وهو لا ؛ لأنه هو في معية الله .

ومادام في معية الله فكل شيء يكون حلوًا .

ندعو الله أن لا يحرمنا من الصلاة حتى لا نُحرم من معية الله .

○○○

(١) روى مسلم [٤٣/٢٥٦٩] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ .. » الحديث .

الوصية التاسعة

من حقوق المسلم على المسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَحَاسَدُوا ، وَلَا تَنَاجَشُوا ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا ، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى هَاهُنَا ، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ »[1] .

الشرح

○ قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَحَاسَدُوا .. »

الذي يحرك عواطف الإنسان غيرته من أن يكون لإنسان نعمة وليست عنده .

فمرحلة أن يطلب من الله أن يُوجد له مثل هذه النعمة . فهذه مرحلة خفيفة .

ولكن تتأصل فيه خصلة الشر حين لا تكون عنده نعمة ، أو حين تكون عنده نعمة ولكنه يكره أن تكون في غيره ، يريدها تكون له وحده . فيتمنى أن تزول هذه النعمة .

(١) رواه مسلم [٣٢/٢٥٦٤] .

فالحسد الممقوت هو أن تتمنى زوال نعمة الغير . تتسامى وتجيء لك ، تتسامى وتتمنى أن تزول وإن لم تأتك ، فهو كراهة ذات النعمة عند هذا .

فهذه مراحل .

الحق سبحانه وتعالى يريد من العبد أن يحترم قَدَرَ اللَّه في خلقه . حين يحترم قدر اللَّه في خلقه يقول : رضيت بقدرى أعطيتك على قدرى .

أما أن تتحرك نفس إنسان بنعمة عند الغير وليست عنده نقول له : إذا نظرت في نفسك فستجد عندك نعمة ليست عند غيرك .

فأنت نظرت إلى المال . فيمكن أن يكون عندك قوة وهو ليس عنده .

أو عندك حلم وهو ليس عنده ، عندك علم وهو ليس عنده .

فهل ترضى لنفسك أن تُسلبَ نعمتك التي أنعم اللَّه عليك حتى تستريح بسلب نعمة الغير ؟!

ففضل اللَّه مبعثرٌ في الكون على خلق اللَّه ، فلا تنظر إلى أي شيءٍ واحدٍ وزاوية واحدة في الإنسان أنت تفقدها ، أو يسوؤك أن توجد عند غيرك .

لأن هذا سيترتب عليك ؛ لأنه ليس حكمك أنت ، بل سيكون حكم المجتمع بالنسبة لك ، فهل تتمنى أنت أن يحسدك المجتمع على نعمك التي أنعم اللَّه بها عليك ؟!

إذا كنت لا تتمنى ذلك فاحجز عينك عن أن تحسد النعمة عن غيرك .

وإن كنت ولابد طالب ، فاطلب من اللَّه أن يعطيك مثلها وخاصة إذا كان المثل خير ، ولذلك فقد قال النبي ﷺ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ :

رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا ، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ (١) .

فتقول : ما أجمل هذا ، أنا أتمنى أن أكون هكذا .

إذن فإن كان الحسد لابد وأن يوجد ؛ فلازمٌ أن يكون في شيئين اثنين : مالٌ يُفاض على الخير ، أو علمٌ ينتفع به الغير .

وإلاَّ فلو حسدت إنسانًا على نعمةٍ هي عندك أو ليست عندك فهذا اعتراضٌ على قدر اللَّه في خلقه .

فأنت حينئذٍ لا تكون معترضًا على صاحب النعم بل تعترض على المنعم ، تقول له : أنت يا رب غلطت في أن أعطيت هذا نعمة !!!

إذا رأينا من ينظر إلى الناس بعين الحقد والحسد ، فماذا نصنع معه ؟

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

(١) رواه البخاري [٧٥٢٩] ، ومسلم [٨١٥/٢٦٦] عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما .
قال النووي رحمه اللَّه [٣/٣٥٩] : « قَالَ الْعُلَمَاء : الْحَسَد قِسْمَانِ : حَقِيقِيّ وَمَجَازِيّ ، فَالْحَقِيقِيّ : تَمَنِّي زَوَال النِّعْمَة عَنْ صَاحِبهَا ، وَهَذَا حَرَام بِإِجْمَاعِ الْأُمَّة مَعَ النُّصُوص الصَّحِيحَة . وَأَمَّا الْمَجَازِيّ فَهُوَ الْغِبْطَة وَهُوَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْل النِّعْمَة الَّتِي عَلَى غَيْره مِنْ غَيْر زَوَالهَا عَنْ صَاحِبهَا ، فَإِنْ كَانَتْ مِنْ أُمُور الدُّنْيَا كَانَتْ مُبَاحَة ، وَإِنْ كَانَتْ طَاعَة فَهِيَ مُسْتَحَبَّة ، وَالْمُرَاد بِالْحَدِيثِ لَا غِبْطَة مَحْبُوبَة إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا » .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] .

أعزله من حياتي ، كل ما يخالف شرع الله أعزله من حياتي ، وكأنه غير موجود .

لا أن يعمل المنكر وأنا أقول عليه إنه منكر ثم بعد ذلك أجامله إن مرض ، أعوده ، لا . بل تعزله عن حياتك ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصنع سجنًا للمذنبين .

نحن نسجن المجرم حتى نمنعه من الحركة ، فأنا فعلاً منعت حركته ، لكن الأحسن من هذا أن تسجن المجتمع الإيماني عنه ، فيكون في وسط المجتمع ولا أحدًا يسأل عنه ، ولا أحدًا يلتفت إليه ، يسلم على الناس فلا يردون عليه !! فتكون قد سجنت المجتمع عنه .

والحبيب محمد صلى الله عليه وسلم عُرِّض للحسد يومًا ما ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم : ٥١] يشهقوا فيك شهقة هكذا .

فهذا دليل عليّ أنه في نعمة ، لكن هذه النعمة ما كان ينبغي أن تحسدوه عليها ؛ لأنها جاءت لكم عامة ، فإنه قد جاء ليهديكم كلكم ، فالنعمة ليست له هو ، بل هذه النعمة جاءت على يده لكم أنتم .

فما كان ينبغي أن تحسدوه لأنها عائدة عليكم . هذا جهلٌ منكم في النعمة التي في يده ، النعمة التي في يده ليست له هو ، بل لكم جميعًا ، فما يصح أنت تحسده ؛ لأن هذا جاء لك ولغيرك ولغيرك .

والرجل الذي يحسد له مواصفات وتركيبة خاصة تظهر على وجهه ؟! يقال : الحسد والحقد الجريمة التى تسبقها عقوبتها ، كل جريمة تأتي عقوبتها بعدها ؛ لكن الحقد والحسد العقوبة تأتي قبل الجريمة . لماذا ؟ لأنه لم يحسدك ، ولم يحقد عليك إلا عندما تقطع قلبه .

إذن .. الجريمة التي تسبقها عقوبتها هي الحسد والحقد ؛ لأنه لم يحسد ولم يحقد إلا بعدما تقطع قلبه .

وفي الحديث : « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ »(١) .

القلب هو ينبوع توجيه الطاقات إلى مهمتها ؛ لأنه هو الذي يضخ الدم في كل الجسد ، فإذا صلح القلب بعقيدة يضخها مع الدم الذي يؤتي الحركة فإن الجسم يصير صحيحًا .

ونقول لكل حاسد : أنت لا تحتاج إلى عقوبة بعد الحسد لأن العقوبة سبقت عمليتك ، حسبك أن تغتم حين يسر الناس بالنعمة .

---

(١) جزء من حديث النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنه الذي رواه البخاري [٥٢] ومسلم [١٠٧/١٥٩٩] .

وقوله ﷺ : « وَلَا تَنَاجَشُوا[1] ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَلَا تَدَابَرُوا » .

تباغضوا : أي كل واحد يبغض الآخر بلا سبب .

لكن أنت حب في الله وابغض في الله[2] ، اجعل حبك لله وبغضك في الله ؛ لأنك ما دمت ستحب في الله ، فسيجعل الله لك أناسًا يحبونك في الله ، تبغض في الله فيرزقك بناس يبغضوا في الله .

فكما ستعمل سيُعمل فيك .

فلا تقول إن الشرع متقصد في ، لا .. بل هو الحكم لك ولغيرك .

إذا قال لك : لا تسرق مالاً من أخيك ؛ فإنه لم يحدد حريتك ، بل حدد حرية الملايين من الناس ألا تسرق منك .

إذا قال لك : لا تنظر إلى محارم غيرك ، فكذلك طلب من الناس جميعًا أن لا ينظروا إلى محارمك .

---

(١) قال النووي رحمه الله في رياض الصالحين : « النَّجْش » : أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ سِلْعَةٍ يُنَادى عَلَيْهَا فِي السُّوقِ وَنَحْوِهِ ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شِرَائِهَا بَلْ يَقْصِدُ أَنْ يَغُرَّ غَيْرَهُ ، وَهَذَا حَرَامٌ . « وَالتَّدَابُرُ » : أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الإِنْسَانِ وَيَهْجُرَهُ وَيَجْعَلَهُ ، كَالشيءِ الَّذِي وَرَاءَ الظهْرِ وَالدُّبُرِ » .

(٢) وفي الحديث عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ » رواه أبو داود [٤٦٨١] وصححه الألباني في الصحيحة [٣٨٠] . وقوله ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » رواه أحمد في المسند [٢٨٦/٤] عن البراء بن عازب رضى الله تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : حديث حسن بشواهده ، وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث .

فإذن أنت الكاسب في هذا ..

نظر لماذا أنت تبغضه ؟!

فإن بغضته لسيئةٍ بالنسبة لله فعلها ؛ فهذا تُثاب عليه .

لكن أنت لا تتحرك بالبغض هذا إلى إنك تضره .

ابغض من شئت واحبب من شئت ، فهذه عواطف لا يمكن لأي عقل أن يتحكم فيها ، لكن حبك لإنسان لا يجعلك تظلم الناس له ، وبغضك لإنسان لا يجعلك تظلمه للناس .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ »

مادام أخوه فلا يصح أن يظلمه .

أمرك أن لا تظلم أخاك ، وأَمَر أخاك أيضًا ألا يظلمك .

فهو يعمل لك وله ، لا يعمل ضدك أنت ، بل يعمل للكل .

فلا هو يظلمك ولا أنت تظلمه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ » .

إن كان أخاك في موقف خير ومأذون فيه فلا تخذله ، لا تفعل شيئًا ضده ، بل إن لم تكن تعينه فلا أقل من أنك لا تخذله ، ودعه يمضي إلى الخير ، يدافع عن الفضيلة .

وقوله ﷺ : « التَّقْوَى هَاهُنَا ، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ »

التقوى في القلب ؛ لأنك قد تتقي أن تؤذي أحدًا لأنه له عُصبة تؤذيك ،

لا بل أنا أريد أن تتقيه تقوى نابعة من قلبك ، فلا يصح أن تعدي حركتك إلى ضرر الغير .

وقوله ﷺ : « **بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ** » :

نحن كلنا عباد الله وكلنا صنعة الله ، فإن كانت في خلقه أو كانت في خُلقه ، فلا تعيب واحد على أنه أعرج .

لا تعيب واحد على أنه أعور .

لا تعيب واحد على أنه كذا أو كذا ؛ لأنه هو الذي خلقه هكذا ، فأنت لا تعترض عليه ؛ لأنه لا حيلة له فيما خُلق عليه ، فأنت إذن تحقر الخالق .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « **كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضُهُ** » :

مادام مسلمًا مثلك فلا تعتدي على دمه بإراقة .

ولا تعتدي على ماله بسرقة أو نهب أو غصب .

ولا تعتدي على عرضه باجتراءٍ عليه أو ذم فيه ؛ لأن العرض هو موضع الذم من الإنسان .

اللَّهم رضنا بقَدَرك في خَلقك حتى يرضى خلقك بقدرك فينا .

○○○

الوصية العاشرة

وصية النبي ﷺ لابن عباس

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ »(١) .

الشرح

○ قوله ﷺ : « **احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ** »

يعني : لا تعتدي على محارمه ؛ فهو سبحانه يقول لك :

لو أمرتُ أمرًا أو نهيت نهيًا ثم خالفته ، فكأنك لم تحفظ عهدي معك .

أنا واليتك بالنعم قبل أن أكلفك ، فأنا لم أكلفك إلا بعدما بلغت سن الخمس عشرة سنة أو الأربع عشرة سنة ، وتركتك ترمح في نعمي دون أن أسألك عن شيء ، فكان الواجب عليك أن تحفظه وأنت مكلف .

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣٠٧،٣٠٣،٢٩٣/١] وقال الأرناؤوط : إسناده قوي ، والترمذي [٢٥١٦] وقال : حسن صحيح . وقال الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم [١٣٨/١] : « وهو كما قال » اهـ ، وأفرد الحافظ ابن رجب شرحه مصنفًا مفرد ولخصه في كتابه : جامع العلوم والحكم .

ومادمت تحفظ الله ، فلن تستعصي عليك مسألة لأن الله أمامك .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ » :

معنى « تسأل » أنه شيء خرج عن جهدك وجهودك .

اسأل الله أن يعينك على أن تحقق لنفسك مطامح الخير في طاعته سبحانه وتعالى .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ » :

قل : « اللَّهم إني أسألك المعونة على طاعتك » .

ولذلك : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ يعني : حببها إليَّ ، ورغبني فيها ، وأعطني إشراقها ونورها حتى أتشجع وأن أعمل غيرها .

فعلى الإنسان أن لا يستعين إلا بالله سبحانه وتعالى في كل شيء ؟

لا ليس فى كل شيء . بمن جعله الله أهلاً للمعونة .

فمثلاً : أريد أن أبني بيت ، فلا أقول يا رب ابن لي بيتًا ، بل أذهب لأهل الذكر .

عندي قضية ؛ ليس ضروريًا أن أعملها بنفسي ، بل أُوَكِّل محاميًا .

أريد أن أعمل عملية حسابية ؛ أعطيها للمحاسب .

أريد أن أخيط جلبابًا ؛ أعطيه للخياط .

وفي هذا لا نقول إننا نسأل غير الله ؛ لأنك سألت الله ما أعطاك الجواب عليه فيما وزَّع من حِرَفِ الخلق في الخلق .

وقوله ﷺ : « وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ » .

يعني لا يمكن أن يناقضوا قدر الله ، فلو أنهم اجتمعوا على أن ينفعوني فلن ينفعوني إلا بشيء قضاه الله لي ، فهم إذن لم يعملوا شيئًا ، ولكن قضاء الله أن يعملوا هو الذي أرغمهم أن يعملوا . لماذا ؟

لأنه كلفهم بالمنهج : اعمل الخير فيه ، اعمل كذا ، اعمل كذا .

فإن عملوا فيك خير فالذي حثهم عليه هو الله سبحانه وتعالى .

وكذلك في الضرر ، لا يضروك إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ؛ لأن الذي يملك خلق الضار وخلق النافع هو الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كان أحدًا سيضرك فاعلم أن مقدورٌ له أن يضرك ؛ لأن الله يريد أن يكفر بهذا الضرر عن سيئاتك أو أن يزيد في درجاتك ، أو إنه بهذا يوقف الغرور عندك . إذن .. ففي هذا نعمة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ » :

يعني لم يعد شيئًا جديدًا إذن ؛ لأن كل شيء رتبته بالقديم ، والنار رجالها موجودين ، والجنة رجالها موجودين ، ولم يعد يوجد شيئًا .. لماذا ؟

لأنني إله واحد ، فإذا قضيت فلا إله آخر ينقض كلامي .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يُوجِّهنا إلى نفائس ديننا حتى لا نفرط فيها تفريطًا يأخذه غيرنا فيُذِلُّنا بها .

الوصية الحادية عشرة

مقدمات دخول الجنة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟ —

فَقَالَ : « كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ » .

قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ ؟

قَالَ : « أَفْشِ السَّلَامَ ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ »(١) .

الشرح

○ **قوله ﷺ : « إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي »**

طيبُ النفس معناها : استقرارها على قضية حقٍّ تُنعشُ الجوارح .

فعندما يرى النبي عليه الصلاة والسلام ، وأنه مبعوث من الحق بهداية الخلق تطيب نفسه وتقر عينه .

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٢٩٥،٤٩٣] وابن حبان فى صحيحه [٢٥٥٩] واللفظ له وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي ميمونة فقد روى له أصحاب السنن الأربعة ، وصححه الحاكم فى المستدرك [٤/١٤٤، ١٧٦،١٧٧] ، وصححه الألباني في الصحيحة [٥٦٩] .

وبعد ذلك فهو ليس مبعوث كلامًا ، بل مبعوث تطبيقًا في سلوك ، يعني يقول ويطبق ما قال .

وبعد ذلك يجد - وهو أكرم الخلق على اللَّه - عيشته عيشة عادية ، فإن كنت أنا ليس عندي أنظر لك ، فأقول في نفسي : إذا كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يعيش هكذا ، فإنه كان يظل بالشهر لا يوقد في بيته نارًا (١) ، وكان يلبس المرقَّع .

فإذن أنا أرضى بأحوال نفسي لأنه أجد سيد الوجود أنا ربما ألبس أحسن منه ، فتطيب نفسي ولا أتمرَّدُ على خالقي ، « وتقرُّ عيني » بأن عملك قد أضفى على وجهك نضارة ، ولذلك يقول : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ .

يعني الوجه هو سمة الشخص ، فعندما يكون مسرورًا تجد عنده نضر هكذا ، عنده إشعاع ، إشعاعه جاذب .

فكذلك هنا عندما أنظر إليه وأرى هذا النموذج للقرآن متمثل في بشر ، فعندها أرتاح ، ونفسي ترتاح ، وعيني تقر بحيث لا أريد أن أخلع عيني منه صلى اللَّه عليه وسلم .

وقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ » .

المقصود من هذه الوصية أنَّ هذا الخلق الذي يعجبك بكل أشكاله وألوانه وطاقاته وبهجته مخلوقٌ من الماء .

---

(١) روى البخارى [٦٤٥٨] عن عائشة رضى اللَّه تعالى عنها قالت : كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ، إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم .

هذا الماء الذي تنظر له على أنه شيء هينٌ ، سائل لا جرم له ، ومع ذلك يُخلق منه كل هذه العجائب !!

هذا الكون العظيم كله من الماء .

حتى تفهم أنَّ هذه صنعة ، ليست فقط إمكانيات ومادة ، لا ، بل إمكانيات ومَدَد ، فهو عمله هو ؛ لأنه عمل من هذه كذا ، فهو الذي عملها .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « وَأَطْعِمْ الطَّعَامَ »(١) .

لأن هذا الطعام هو ضرورة الحياة التي لابد منها ، ومادمت تطعم الطعام ، فإن كان الذي ستطعمه قابل لأن يأكل فسيأكل ، وإن كان غير قابل فلن يأكل .

فإن الانسان لا يأكل إلا عن حاجة .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « أَفْشِ السَّلَامَ » :

لأن الإنسان إذا كان جالسًا وطرأ عليه طارئ ، فإن نفسه تفكر : هل جاء بشرٍّ أم جاء بخير ؟ أيؤذيني أم لا يؤذيني ؟ فأقول : السلام عليكم وهو يقول وعليكم السلام يعني لا تخاف مني ولا أخاف منك ، فيجمعنا سلام ، فإذن أنا اطمأننت أن هذا الذي جاء لم يجيء بشر .

---

(١) وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : « أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا أو تقضي عنه دينا ، أو تطعمه خبزا » رواه البيهقي في : شعب الإيمان ، وابن أبي الدنيا في : قضاء الحوائج ، من حديث أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه . وحسنه الألباني في الصحيحة [١٤٩٤] .

وبعد ذلك يقول : الليل مكان سكون النفس وهدوئها من حركة الحياة ، فإذا كنت أنت ستترك شيئًا من راحتك في هذا وبعد ذلك تستيقظ لتأخذ طاقةً من القوي المعين ، فهذا يكون عملاً عظيمًا ؛ لأنَّ الناس نيام وأنت صاح ، فإنَّ تنزلات الحق في الليل لا تنتهي ، تُوَزَّع على الناس ، فمن كان بين يدي اللّه كان أولى بها .

فهو يقول : إن اللّه يتجلّى بالليل ويقول : هل من تائب فأغفر له ، هل من .. إلى آخره (١) .

نقول له : أيُّ ليلٍ يبسط اللّه يده ؟ ليلنا أم ليل أمريكا ، أم ليل ألمانيا أم ليل أندونسيا أم ليل .. ؟ فإن كل وقت فيه ليل ؟

فكأن يد اللّه مبسوطة دائمًا (٢).

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « وَصِلْ الْأَرْحَامَ » :

لأن الرحم : يقول اللّه عنه : « شققت لها اسمًا من اسمي فمَن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »(٣) .

---

(١) رواه مسلم [٧٥٨] ، وأحمد فى المسند [٤٣٣/٢] عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى اللّه تعالى عنهما .

(٢) روى مسلم [٣١/٢٧٥٩] عن أبى موسى عن النبى صلى اللّه عليه وسلم قال : « إن اللّه عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطل الشمس من مغربها » وأحمد فى المسند [٣٩٥/٤] .

(٣) تقدم تخريجه .

وإذا كانت الدوائر تتداخل ؛ ومعنى تداخل الدوائر أن كل إنسانٍ له رحم ، دائرته القريبة ، والإنسان الآخر أيضًا له رحم ، قد تتداخل أرحامي وأرحامك ، ثم تتشابك الدوائر ، فلا يبقى أحد ليس موصولاً ، فيكون كل الخلق موصولاً .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وصليّ بالليل والناس نيام »

حتى تأخذ فيوضات الحق سبحانه وتعالى ، وأنت في سكون نفسك ، وهي في هدوئها ؛ لأن مشاغل النهار قد تشغلك عن شيء ؛ لأنك أنت الآن في الراحة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ثُمَّ ادْخُلْ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ »

لأنك قد عملت المقدمات التي تدخلك الجنة إن شاء الله .

نسأل الله أن ننتفع بهذه العظات انتفاعًا يوصلنا إلى دار المقام في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر .

ooo

الوصية الثانية عشرة

ثلاث وصايا من النبي ﷺ لأبي ذر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

« أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدَعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ :

١- صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ .

٢- وَصَلَاةِ الضُّحَى .

٣- وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ »(١) .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ »**

الله تبارك وتعالى حينما فرض أشياء ؛ ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يَسُنَّ أشياء ؛ لأنه مأمونٌ على أن يُشرع .

كل الرسل قبل محمد ﷺ يبلغون ما أمروا به ، دون أن يجتهدوا في شيء أو يقولوا به ، فرسول الله ﷺ هو الوحيد الذي كُلف أن يُشَرِّع .

فالقرآن يعطينا أصول المسائل ، ثم يترك تفصيلها لرسول الله ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

(١) رواه البخاري [١١٧٨] ، ومسلم [٧٢١/٨٥] .

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] .

فصنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم عملاً يشرع به ؛ لأنَّ القرآن لم يأت فقط ككتاب منهج ، بل جاء معجزة ، ولكنه يمس أصول الأحكام ، ثم يُفَصّلها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فنحن نُصَلّي المغرب ثلاثة ركعات ، فمن أين جئنا بها ؟

هل جئنا بها من القرآن ؟

جئنا بها من فعل الرسول ﷺ .

جهرتُ في كذا وأسررت في كذا ؛ ليس من القرآن ، ولكن أخذتها من فعل الرسول ﷺ . والله تعالى يقول لنا : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] .

فالرسول له أن يُشرّع ، ولكن الناس تخلط بين سنة الرسول في الحكم ، وسنته في الدليل .

فسنة الحكم : إن فعلتها تثاب ، وإن لم تفعلها لا تُعاقب .

ولكن سنة الدليل : قد يَسُنُّ شيئًا وإنما هو فرض ، كما سنَّ ثلاث ركعات في المغرب وركعتين في الصبح وأربع في الظهر والعصر والعشاء . هذه سنة ، ومعنى سنة : سُنِّيَّة دليل ، لا سُنِّيَّة حكم بحيث إن عملتها تأخذ ثواب وإن لم تعملها لا تعاقب .

فالله تبارك وتعالى صنع فرائض مُلزمة ، فمن أحبها ولقي لها إشراقًا في نفسه وحلاوة ، له أن يزيد منها بمثل ما فرض الله .

فإنَّ الإنسان إذا صام ثلاثة أيام ؛ فهذا سُنَّة ، ولكن إن لم يفعلها لا يُعاقب .

ولو زاد الإنسان فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله فهو دليل منه على أنه أحبَّ ما فرض الله فاستزاد عليه ، كأنه يقول : الله فرض عليَّ دون ما يستحق ، فأنا أزيد من هذا ، فهو بهذا يدخل في مقام الإحسان ؛ مقام الإحسان أن تعبد الله بشيء زائد عما فرض الله (١) ، ولكن من جنس ما فرض الله ؛ فرض صلاة ؛ زِدْ في الصلاة ، فرض صيام ؛ زِدْ في الصيام ، فرض زكاة ؛ زِدْ في الزكاة ، فرض حج ؛ زِدْ في الحج :

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

فمعنى ذلك : هذه الشهادة على أن الحق سبحانه وتعالى كلفك دون ما يستحق ، وأنت عندما أشرقت في نفسك هذه الطاعات والالتزام بها ؛ زِدْت عنها لتنعم نفسك بعزة العبودية .

---

(١) روى البخارى [٥٠] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ومسلم [٩/٥] ، وابن ماجه [٦٤] ، والترمذى [٢٦١٠] عن يحيى بن يعمر رضى الله تعالى عنه ، والنسائى فى المجتبى [٤٩٩٠] ، وأبو داود [٤٦٩٥] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَصَلَاةِ الضُّحَى » :

هي ركعتان : أقلها يعني . وإنما قد أوصلها الرسول إلى ثمانية .

أيضًا من هذا النوع . ولماذا ركعتي الضحى ؟

لأن الأوقات ؛ يدخل وقتٌ ويخرج بدخول غيره ، ووقتٌ ينتهي ولا يدخل غيره .

فمثلاً وقت الظهر يبدأ ، وبعد ذلك يأتي العصر ، فوقت العصر يخرجك من وقت الظهر ويدخلك في وقت العصر .

ففرضٌ التحم بفرض .

لكن في الصبح : يبدأ من الفجر إلى شروق الشمس ، ويدخلك في شروق الشمس لا يوجد فرض ، فتقول أنت : لا ؛ أنا لا أُخلي الوقت من أداء شيء لله .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ » .

معنى : يوتر : يصلي صلاة الوتر ، التي لا تنقسم على اثنين : ركعة أو ثلاث ركعات أو ... إلخ .

« وَنَوْمٍ عَلَى وِتْرٍ » معناه أنك أخّرت الوتر إلى آخر الليل ، على أمل أنك لم تختم صلاة العشاء أملاً في أن تقوم مرة أخرى لتصلي .

فلا أصلي الوتر مع الصلاة ، بل أترك الصلاة ؛ لأنه لي أمل في أن أقوم ثم أصلي الوتر في الآخر .

فضيلة الإمام أنا أصوم ولا أصلى فما جزاء الصيام ؟

الصلاة لها حكم فمن ترك هذه الصلاة ؛ إن كان جحودًا فيكون كفرًا ويُقتل . وإن كان كسلاً يُستتاب مرتين أو ثلاثًا ثم يقام عليه الحد .

ولذلك فهذه الصلاة التي ليس فيها عُذر .

أدركتني الصلاة - مثلاً جاء المغرب - وأنا لم أصلي العصر وكنت متعمدًا أن لا أصلي العصر .

هل متعمدًا نكرًا له أم كسلاً أم ماذا ؟

وهذا الذي لانراه في المسجد إلا يوم الجمعة ، ما نصيبه من الإسلام ؟

الحُرمة على المجتمع الذي أبقاه إلى الجمعة الأخرى بدون أن يقيم عليه الحدّ . فالإثم في المجتمع .

فهذه الوصية تدعونا إلى بعض التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن نعض بالنواجذ عليها ؛ صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، ركعتي الضحى ، أن أوتر قبل أن أنام .

الإسلام رسم لنا صُورًا جميلة .

ليس فقط لتقيم الفرض ، بل وأنت تتطوع أيضًا .

ولذلك اقرأ سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ ليس مؤمنين فقط ، فمُحْسِن : يعني زاد عما فرض الله من جنس ما فرض الله .

كيف ؟ قال : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ما فرض اللّٰه على الإنسان أن لا يهجع إلا قليلاً من الليل ، ولكن هو مُحبٌّ في اللّٰه ، وهذا الليل وقتٌ طويل بدون صلاة فيقوم فيتهجد بالليل ، كما في الضحى : الوقت من طلوع الشمس إلى الظهر خال من الوقت ، فيشغله بوقت سنة ، فالليل طويل من العشاء إلى الفجر ، فيشغله بالتهجد .

فهو قد عز عليه أن يوجد زمانٌ لا يقوم الإنسان فيه للصلاة . فهو عملها سنة ، فيكون من مقام الإحسان :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ما فرض اللّٰه علي أن أستغفر في السحر ، بل صلي العشاء ثم نام ، وعندما يأتي الصبح قم للصلاة .

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ ليس معلومًا ، فالمعلوم في الزكاة ، لكن حق غير معلوم يكون في الصدقة ، مقام الإحسان ، يعني بدل ما تُخرج اثنين ونصف في المائة ؛ أخرج خمسة في المائة ، أخرج عشرة في المائة . فهذا مقام الإحسان .

الصيام وصحة الإنسان كما ينصح الأطباء ، يقولون : إن الصيام يقيك من مرض كذا ويقيك من مرض كذا .

الصيام عبادةٌ مفروضة للّٰه : فأنا أعملها من غير ما أقول كذا وكذا ! وإذا فعلت الحكم لعلته المادية فلا يكون إيمانًا ، فأنا أفعل الحكم لأن اللّٰه قاله .

الفلاح الذي يستعمل التليفزيون ، هل يستفيد منه أم لا يستفيد ؟ يستفيد ، فهل يعرف لماذا عندما أفعل كذا تأتي الصورة ، وعندما أفعل كذا يحصل كذا ؟ لا يعرف . إذًا فعدم معرفتك بالشيء لا يمنع أن تستفيد منه .

فَخُذْ أحكام اللّٰه بمراد اللّٰه فيها لا بعقلك .

نسأل اللّٰه سبحانه وتعالى أن نتلقى أوامره بالطاعة والامتثال لنأخذ سر اللّٰه فيها وإن لم نعلمه .

○○○

الوصية الثالثة عشر

الوصية بالإحسان حتى في ذبح الحيوان

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :

« إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ »(١) .

الشرح

○ **قوله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ »**

الإحسان : أن تصنع الشيء على أحسن وجوهه ليُحقق غرضه بدون زيادة إيلام . ومَن يصنع هذا الإيلام يكون قد خالف أمر الله ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهذه المخالفة تحتاج ما أن نقف وقفة لمن يخالف شرع الله ويخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه أبو داود [٢٨١٥] ، والترمذي [١٤٠٩] ، والنسائي في المجتبى [٤٤٠٥] وابن ماجه [٣١٧٠] ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقد صححه الألباني في : إرواء الغليل [٢٢٣١] . قال الحافظ ابن حجر في الفتح [٩/٦٤٤] : « قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ : فِيهِ رَحْمَةُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ حَتَّى فِي حَالِ الْقَتْلِ ، فَأَمَرَ بِالْقَتْلِ ، وَأَمَرَ بِالرِّفْقِ فِيهِ . وَيُؤْخَذُ مِنْهُ قَهْرِهِ لِجَمِيعِ عِبَادِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ لِأَحَدٍ التَّصَرُّفَ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ حَدَّ لَهُ فِيهِ كَيْفِيَّةً » .

نعزله - كما قلنا فيما سبق عن مجتمعه .

هذا هو العلاج !

نعم ؛ لو أن كل الناس رأوا واحدًا عمل جريمة وعزلوه عن مجتمعهم ، فسيئوب إلى المجتمع رغمًا عنه .

فالعزل في هذه الحالة فيه الصلاح للباقي

هؤلاء الثلاثة الذين خُلفوا(١) ، ماذا فعل فيهم ؟

هل سجنهم ؟ لا ، بل تركهم أحرارًا في المجتمع يروحوا ويجيئوا ، ولكن لا يكلمهم أحد .

حتى امرأته نهاها أن تمكنه من نفسها .

(١) يشير الشيخ رحمه الله إلى قصة كعب بن مالك وصاحبيه وهي بطولها في البخاري [٤٤١٨] ، ومسلم [٥٣/٢٧٦٩] عن كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبٌ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ . وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ =

= فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٍ يُرِيدُ الدِّيوَانَ قَالَ كَعْبٌ : فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ . وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا فَقُلْتُ : أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ . فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ : مَا فَعَلَ كَعْبٌ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ . فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَ مَا قُلْتَ ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا . فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي : =

= مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلَالُ ابْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ =

فَتَشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ . قَالَ : فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ . فَقُلْتُ : لَمَّا قَرَأْتُهَا - وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ - فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ . فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ قَالَ : لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي : الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ . قَالَ كَعْبٌ : فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ : لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ قَالَتْ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ، قَالَ : فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ =

= فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ . قَالَ كَعْبٌ : حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ : أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ قَالَ قُلْتُ : أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قُلْتُ : فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥] قَالَ كَعْبٌ : وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ =

حين تطلب من غيرك الإحسان في عمله معك ، فكأن الله طلب الإحسان من الغير في عمله معك أنت .

فيكون قد طلب منك أن تُحسن في غيرك ، وطلب من كل غيرٍ في الوجود أن يُحسن لك .

فالكاسب هو أنت .

فلابد للإنسان أن يكون محسنًا مع غيره في كل أموره .

فالرسول ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ »(١) .

ويقول : « إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ »(٢) .

= أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ . وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ .

(١) روى البخاري [٦٠٢٤] ، ومسلم [١٠/٢١٦٥] أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تعالى عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكُمْ قَالَتْ عَائِشَةُ : فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ : وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ . قَالَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَهْلًا يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَدْ قُلْتُ : وَعَلَيْكُمْ .

(٢) رواه مسلم [٧٨/٢٥٩٤] عَنْ عَائِشَةَ رضي الله تعالى عنها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ » .

يعني : لا تُمثِّلوا ، لأنك تريد أن تتخلَّص من حركته ضِدَّ دينك ، فيكفي أنك تُزهق روحه ، فلا تُمثِّل به ولا تقطِّع منه ؛ لأن المراد من القتل أن أمنع حركته في محاربة ديني ، ومادمت قد منعتها فلا أُمثِّل به .

والمراد بهذه الوصية : أحسنوا القتلة في كل شيء ..

في الحيوان ، في الطير .

ولابد أن تُحدَّ شفرتك ، حتى لا تطيل أمد العذاب للمذبوح .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ » .

يعني لا تظل تحذ هكذا وتحذ هكذا ، لأن هذا الحذ سيوجد إيلام ، والأصل فيها هو إزهاق الحياة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ » .

حتى تقطع السكينة مرة واحدة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » .

يعني نيِّمها بطريقة مريحة ، فلا تُعذِّبها قبل ما تذبحها .

لأنَّ الذبح شيء ، والإهلاك شيء آخر .

الإهلاك يعني : الموت . ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : ٢١] .

أذبح : ينهي الحياة . أعذبه : أؤلمه مع بقاء الحياة .

أحيانًا نرى مَن يقومون بالاصطياد لبعض الطيور ، فيقطعون رقبته فورًا باليد ، لا بالذبح !! وهذا لا يجوز ولا يصلح ، فليست هذه بذبيحة .

ما قلب هذا الإنسان الذي يفعل هذا ؟

الله غفر لرجل سقى كلبًا ؛ كلبٌ يلهث هكذا فلا يجد شيئًا يشربه ، فدخل البئر وملأ خفه ماءً وأعطاه للكلب .

وقال رسول الله ﷺ : « في كل ذات كبد رطبة أجر »(١) .

نسأل الله أن يُرغبنا في أن نحسن كما هدانا إلى أن نؤمن .

(١) روى البخاري [٢٣٦٣] ، ومسلم [١٥٣/٢٢٤٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا ؟ فَقَالَ : « فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » .

قال النووي رحمه الله [٥٠٣/٧] : « قوله ﷺ : « في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » مَعْنَاهُ فِي الإِحْسَانِ إِلَى كُلِّ حَيَوَانٍ حَيٍّ بِسَقْيِهِ وَنَحْوِهِ أَجْرٌ ، وَسُمِّيَ الْحَيُّ ذَا كَبِدٍ رَطْبَةٍ ، لأَنَّ الْمَيِّتَ يَجِفُّ جِسْمُهُ وَكَبِدُهُ . فَفِي الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الإِحْسَانِ إِلَى الْحَيَوَانِ الْمُحْتَرَمِ ، وَهُوَ مَا لا يُؤْمَرُ بِقَتْلِهِ . فَأَمَّا الْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ فَيَمْتَثِلُ أَمْرَ الشَّرْعِ فِي قَتْلِهِ ، وَالْمَأْمُورُ بِقَتْلِهِ كَالْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ وَالْمُرْتَدِّ وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ وَالْفَوَاسِقِ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْحَدِيثِ وَمَا فِي مَعْنَاهُنَّ . وَأَمَّا الْمُحْتَرَمُ فَيَحْصُلُ الثَّوَابُ بِسَقْيِهِ وَالإِحْسَانِ إِلَيْهِ أَيْضًا بِإِطْعَامِهِ وَغَيْرِهِ سَوَاءٌ كَانَ مَمْلُوكًا أَوْ مُبَاحًا ، وَسَوَاءٌ كَانَ مَمْلُوكًا لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ » .

الوصية الرابعة عشر

النهي عن الإسراف والخيلاء

عن عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُوا ، وَتَصَدَّقُوا ، وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ ، وَلَا مَخِيلَةٍ »(١) .

الشرح

○ قوله ﷺ : « كُلُوا ، وَتَصَدَّقُوا ، وَالْبَسُوا » .

لا نُسرف في أي شي .

وهذه الوصية داخله في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الإسراء : ٢٧] .

(١) رواه البخاري معلقا في كتاب اللباس [٢٥٢/١٠] : باب قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ووصله النسائي في المجتبى [٢٥٥٩] ، وأحمد في المسند [١٨٢،١٨١/٢] وقال الأرناؤوط : إسناده حسن . وصححه الألباني في الصحيحة [٢٠٣٢] . قال الحافظ ابن حجر في الفتح [٢٥٣/١٠] : « قَالَ الْمُوَفَّقُ عَبْدُ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ جَامِعٌ لِفَضَائِلِ تَدْبِيرِ الإِنْسَانِ نَفْسَهُ ، وَفِيهِ تَدْبِيرُ مَصَالِحِ النَّفْسِ وَالْجَسَدِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، فَإِنَّ السَّرَفَ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَضُرُّ بِالْجَسَدِ وَيَضُرُّ بِالْمَعِيشَةِ فَيُؤَدِّي إِلَى الإِتْلافِ وَيَضُرُّ بِالنَّفْسِ إِذْ كَانَتْ تَابِعَةً لِلْجَسَدِ فِي أَكْثَرِ الأَحْوَالِ ، وَالْمَخِيلَةُ تَضُرُّ بِالنَّفْسِ حَيْثُ تُكْسِبُهَا الْعُجْبَ وَتَضُرُّ بِالآخِرَةِ حَيْثُ تُكْسِبُ الإِثْمَ ، وَبِالدُّنْيَا حَيْثُ تُكْسِبُ الْمَقْتَ مِنَ النَّاسِ .. » .

كل شيء يراعى فيه الاقتصاد .

يعني : يأكل على قدر ما يقيم حياته ، لا أجعل الأكل شَرَه .

ففي الحديث : « ما ملأ آدمي وعاءً شرًا من بطنه »(1) .

ولا أجعل اللباس مخيلة ، يعني : أختال به بين الناس وأظهر فضل النعمة عليَّ وغيري كذا وكذا .

إذن .. في الأكل والشرب واللباس ، أعمل القدر الذي يقيم أودي في الأكل ، ويستر عورتي ولا مانع من الرياش البسيطة فيها ، وفي الشراب أيضًا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ .

هذه أول مرحلة في اللباس ﴿ وَرِيشٗاۖ ﴾ وأيضًا أعطيناكم شيئًا تتزينوا به ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف : ٢٦] لباس التقوى خير من ذلك كله .

وكذلك في اللباس وفي الشراب : لا نسرف فيه إسرافًا ؛ لأن هذا يغيظ من لا يجد أولاً ، ويشعرك بأنك فوق مستوى من دونك في هذه المسألة ، فيربي في نفسك أنك شيء آخر .

(1) رواه أحمد في المسند [١٣٢/٤] وقال الأرناؤوط : رجاله ثقات ، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدام ، والترمذي [٢٣٨٠] ، وابن ماجه [٣٣٤٩] ، والحاكم في المستدرك [١٣١/٤، ١٣٥] ، وصححه الألباني في إرواء الغليل [١٩٨٣] عَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » .

والله يريد منك أن تستطرق العبودية فيك إلى غيرك ، فلا يوجد فرقٌ كبير ، فلماذا فرض في الحج أن نستوي في اللباس ؟ لأجل هذا ، يمنع التميُّز بالبِزَّة أو بالهيئة .

وفي الصدقة يقول النبي صلى الله عليه وسلم : و « الصَّدَقَة تُطْفِئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار »(1) .

لأن الصدقة ؛ يدُ الله الممدودة إلى خلق الله .

فالذي خلقهم وجاء بهم في الوجود ، تكفَّل برزقهم ، فأنت كأنك يد الله الممدودة لهذا الخلق ، فمن لا يرضى أن يكون يدًا لله ؟

فلابد أن تصل الصدقة إلى مستحقيها . لكن الصدقة ؛ ليست الاحتراف ، فالناس الذين يحترفون فهذا موضوع آخر .

وكيف نتعرف من خلال هذا المجتمع الذي نعيش فيه أنَّ الصدقة تصل إلى مَن يستحقها ؟

أنت لك محيط ، لو كنت أنت إنسان عايش في المسلمين تتحسس أحوالهم ، تعرف المقتر ، والذي ليس عنده ، وكذا وكذا .

فضروريّ أن تكون يقظًا في مجتمعك ، بحيث تعرف هذا وهذا وهذا فتتحسَّس أحوال الناس .

(1) رواه الترمذي [٦١٤] ، وابن ماجه [٣٩٧٣] وصححه الألباني . عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ : وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ .

وراجع شرح الحديث بتوسع في : جامع العلوم والحكم لابن رجب .

هذا الرجل الذي طرق الباب فخرج له فقال له : مسألتي كذا كذا فدخل فقضاها له ، ثم دخل على أهله وهو يبكي فقالت له : ما يبكيك وقد أديت له ما طلب ؟

فقال : لأني أهملته لدرجة أنه سألني ، فكان يجب أن أتحسس مسائل الناس ، حتى أعرف هل هذا محتاج أم غير محتاج .

هناك ممن يتصدقون لسمعة . وينتفع بهم المجتمع ، لكن هم الذين خسروا وخابوا .

ليس لنا شأنٌ أن نتحرى هذا ممن يتصدقون !

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ .

فالدنيا دُول ، فإن كنت قادرًا فاذكر أنك قد تعجز ، فإن كان يسُرك حين تعجز أن تُمد من أهل الخير ، فمُد يدك يا أهل الخير على من ليس عنده خير .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ ، وَلَا مَخِيلَةٍ »

يعني مراده : أنني عندما لا أفعل ذلك فسيفيض عندي شيئًا ، فأنا قادر أن أعمل ريشًا وألبس أفضل الثياب وآكل كذا وكذا .

ولكن لا . خذ على قدر كذا وكذا والباقي تصدق به على من لا يقدر على مثل ما قدرت عليه أنت .

والمقصود بقوله ﷺ « فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ ، وَلَا مَخِيلَةٍ » :

الإسراف : بأنك ستُجهد أمعاءك وتجهد كذا وكذا ، وتُجهد مادتك ، فيصير عندك شُح على الغير . لكن عندما يكون عندي مال لا أُريده في أي شيء ، فيكون سهلاً علي أن أنفقه .

ولا مخيلة : يعني لأجل أن أكون أفضل من غيري !!

فهو فرض علي الصلاة خمس فرائض لأجل ذلك ؛ حتى أدخل المسجد ويكون فيه الوزير ورئيس الدولة وكل شيء ، ونخضع لإمام واحد ، في بيت الله ، ونخلع أقدارنا خارج المسجد مع نعالنا .

ولذلك يمنع رسول الله ﷺ أن نُوطن الأماكن(1) ، لا أن يكون هذا

(1) روى أبو داود [٨٦٢] ، والنسائي في المجتبى [١١١٢] ، وابن ماجه [١٤٢٩] عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِبْلٍ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ وَافْتِرَاشِ السَّبُعِ وَأَنْ يُوَطِّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوَطِّنُ الْبَعِيرُ . قال في عون المعبود [٨٦٢] : « وَأَنْ يُوَطِّن : بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ وَيَجُوز تَخْفِيفهَا « الرَّجُل الْمَكَان فِي الْمَسْجِد كَمَا يُوَطِّن الْبَعِير » : فِيهِ وَجْهَانِ أَحَدهمَا أَنْ يَأْلَف مَكَانًا مَعْلُومًا مِنْ الْمَسْجِد لَا يُصَلِّي إِلَّا فِيهِ كَالْبَعِيرِ لَا يَأْوِي مِنْ عَطَنه إِلَّا إِلَى مَبْرَك دَمِث قَدْ أَوْطَنَهُ وَاتَّخَذَهُ مَنَاخًا لَا يَبْرُك إِلَّا فِيهِ وَالْوَجْه الْآخَر أَنْ يَبْرُك عَلَى رُكْبَتَيْهِ قَبْل يَدَيْهِ إِذَا أَرَادَ السُّجُود بُرُوك الْبَعِير عَلَى الْمَكَان الَّذِي أَوْطَنَهُ ، وَأَنْ لَا يَهْوِي فِي سُجُوده ، فَيُثْنِي رُكْبَتَيْهِ حَتَّى يَضَعهَا بِالْأَرْضِ عَلَى سُكُون وَمَهْل . قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ . قُلْت : الْوَجْه الثَّانِي لَا يَصِحّ هَاهُنَا لِأَنَّهُ لَا يُمْكِن أَنْ يَكُون مُشَبِّهًا بِهِ ، وَأَيْضًا لَوْ كَانَ أُرِيدَ هَذَا الْمَعْنَى لَمَّا أُخْتُصَّ النَّهْي بِالْمَكَانِ فِي الْمَسْجِد فَلَمَّا ذُكِرَ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَاد هُوَ الْأَوَّل قَالَ اِبْن حَجَر : وَحِكْمَته أَنْ يُؤَدِّي إِلَى الشُّهْرَة وَالرِّيَاء وَالسُّمْعَة وَالتَّقَيُّد بِالْعَادَاتِ وَالْحُظُوظ وَالشَّهَوَات وَكُلّ هَذِهِ آفَات أَيّ آفَات فَتَعَيَّنَ الْبُعْد عَمَّا أَدَّى إِلَيْهَا مَا أَمْكَنَ » .

مكان يجلس فيه الوزراء ، وهذا مكان يجلس فيه كذا ، وهذا مكان يجلس فيه كذا ، لا ، بل كل واحد يجلس حيثما ينتهي به المجلس ، حتى تكون سواسية في كل شيء .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عطاءنا لله ؛ حتى نستفيد من مالنا الذي أخرجناه كما نسأله سبحانه أن نربح من صدقاتنا فوق ما خسرنا بإخرجها .

ooo

الوصية الخامسة عشر

ستة امور يضمن بها الجنة

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :

« اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ :

١- اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ .

٢- وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ .

٣- وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ .

٤- وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ .

٥- وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ .

٦- وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ »(١) .

الشرح

○ **قوله ﷺ : « اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ »**

هذه الوصية تدعونا إلى التمسك بالفضائل والتخلي عن الرذائل .

(١) رواه أحمد فى المسند [٣٢٣/٥] ، وابن حبان فى صحيحه [٢٧١] وقال الأرناؤوط : حسن لغيره ، وهذا إسناد رجاله ثقات ، والحاكم فى المستدرك [٣٩٩/٤] ، وحسنه الألباني في الصحيحة [١٤٧٠] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ »

لأن الرسول ﷺ قال لما سُئل : أيزني المؤمن ؟ قال : « نعم » ، أيسرق ؟ قال : « نعم » ، أيكذب ؟ قال : « لا »(1) .

فسمة المؤمن : الصدق .

لأنه لو كذب لا أُصدقه حين يقول أشهد أن لا إله إلا الله ، بل أكذبه فيها ، فإنه اعتاد الكذب .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ » .

لأنك حينما تَعِدُ الإنسان فهو يُرتِّب حياته وزمنه وحركته على الإيفاء بوعدك ، ويعطل نفسه ، وأنت حر تريد أن تعمل ما تريد ، فأنت رَبَطته وأنت طليق ، بل إذا ربطته فاربط نفسك معه .

أيضًا : إذا أردت أن يفي بوعده فأوف بوعدك .

والوفاء بالوعد يجعل هناك ثقة في الكلمة ، ليضمن أنَّ الكلمة تصدر وأنا أريدها ، ليس كلمة تُقال هكذا وأنا لا أريدها .

فمن يخالف الوعد ، يُرزق بمن يخلف له وعده .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ » :

إذا ائتمنني أحد على شيء فلابد أن أُؤَدِّيه .

(1) تقدم تخريجه .

ألا يسرك أن تسترد أمانتك ممن أمنته عليها ؟ أم يَسُرّك أن يجحد ؟ فكما تفعل مع نفسك افعل مع غيرك ؛ حتى تشيع الثقة بين المؤمنين .

لأنه لو خان واحدًا الأمانة فلن يأمن أحدًا آخر على شيء .

وإذا فقدت الثقة في المجتمع في هذه ، فقد فسد المجتمع كله .

وقوله ﷺ : « وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ » :

لأن هذه وسيلة الشيطان .

لأنه لا يظنّ أحدٌ أنَّ امرأته أجمل ما في الوجود ، بل يوجد من هي أجمل منها .

فإن لم تَغُضّ بصرك فستجد أجمل من امرأتك .

وإذا رأيت من هي أجمل من امرأتك فستقارن .

وعندما تقارن تجد امرأتك أقلّ ، فتبتدئ تنظر لها نظرة ثانية ، فتتأفف لها على أي شيء .

لكن لو لم تر شيئًا لكانت امرأتك ليس في ذهنك غيرها .

فعلى الإنسان أن يغض بصره وأن يحفظ فرجه حتى لا يُدخل ماءه في كفالة غيره ، لا يأتي بسلالة يتحملها غيره .

لأنه لما تأتي من غيره فلا يوجد بضع الحنان الموجود من القطعة مني ليس موجودة فيّ .

ولذلك لا تجد واحدًا يهمل أولاده إلا إذا شك في نسبهم .

ما نراه اليوم ! الابن يعتدي على أبيه ويعتدي على أمه !

ما هذا ؟ لأن التربية ناقصة .

فهل هذا جزاء من يُربي ؟ أول ما يبدأ يبدأ به هو !

لو أحسن تربيته لكان حسنًا ، لكن هو ضيعه ، فلابد أن يضيعه أيضًا .

وعندما نذهب أيضًا إلى دار المسنين نجد كبار السن ؛ لأن أباه ربما قد أهمله في شيء ، فلو كان أباه سابغًا له بالحنان من بادئ الأمر ، لما فعل معه ابنه هذا !!

الأم التي حملت في ابنها تسعة أشهر ، وبعد هذا العمر يتركها تذهب إلى دار المسنين ؛ لأنها أهملت تربيته !!

فلو ربَّته على الفضيلة وعلى الخير لما فعل معها هذا .

فهذا الابن ليس قلبه قاسيًا فقط ، بل غير كامل الإيمان أيضًا ؛ لأن ربنا قال : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] .

تنازل عن موضوع الشرك به ، وقال له : لا تكرهه بشدة ؛ لأنه أشرك بي ، وليس فقط أشرك بي ، بل يريد منك أن تُشْرك مثله ، فلا تطعه فيما أمر ولكن صاحبه في الدنيا معروفًا .

وهذا ليحافظ على العلاقة بين سبب الوجود المباشر ليقرب إليك سبب الوجود الأعلى – الوجود الغير مباشر .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ »

لا تمدَّ يدك لما لا تملك ، لأنك أنت إن أردت أن تستمتع فَطَوِّر حياتك ، فأحسن حركتك ، لا تتلصص وتأخذ عرق الغير لتبني منه دَمَك .

فمن يفعل هذا ، ولم يكف يده ، ويبني يكون عاصيًا ، ويأخذ جزاءه في الدنيا قبل الآخرة .

هناك من نراه يرتع في الدنيا بظلمهم ، ولا يشعر أن هناك يومًا آخر .

تقول له : أنت يتهيأ لك ذلك ؛ لكن لو تأملت فستجد أنه لا يموت ظلومٌ حتى ينتقم الله منه .

فيعيش المظلوم حتى يرى مصرع الظالم ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : ٧٧] .

نسأل الله أن يربط قلوبنا بمنهجه الأعلى في افعل ولا تفعل .

○○○

الوصية السادسة عشر

اغتنم خمسًا قبل خمس

قَالَ النَّبِيّ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظهُ : اِغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْل خَمْس :

١. شَبَابك قَبْل هَرَمك .

٢. وَصِحَّتك قَبْل سَقَمك .

٣. وَغِنَاك قَبْل فَقْرك .

٤. وَفَرَاغك قَبْل شُغْلك .

٥. وَحَيَاتك قَبْل مَوْتك »[١] .

الشرح

○ **قوله ﷺ : « اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْل خَمْس : شَبَابك قَبْل هَرَمك » .**

الشباب هو : الطاقة القادرة على الفعل .

وهذا هو الذي يتأتى بعد عُمر الطفولة .

لكن الإنسان لا يظل شابًا ، بل كلما تقدم به العمر قل نشاطه .

وكلما تقدم وَهَنَ عظمه ، ولم يَقْدِر على ما كان يقدر عليه .

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٣٤١/٤] من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والقضاعي في مسند الشهاب [٧٢٩] ، وصححه الألباني في تخريج اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي [١٧٠] .

فلا تتصور أنك ستظل شابًا ، ولكن سيأتي عليك وقت لا تنهض بحركة .

فاستغل إذن شبابك هذا ، حتى تُخَزّن منه أعمال ، هذه الأعمال تكون لك عونًا حين لا تقدر على العمل .

حتى في أمر الدنيا ؛ يعني اجتهد وأنت تستطيع أن تتحرك .

وهذه يضرب مثل بها للدنيا والآخرة .

فالله تعالى قد أعطاك دنيا ، وأعطاك كونًا ينفعل لك ؛ فإن غرست ، وراعيت الزرع جيدًا ، وسقيته ، ورويته ، وكذا ، فستأخذ حقك .

فكذلك يوصلك إلى الآخرة .

فقال لك : تنتهز فرصة القوة أو مظاهرها ، لتحتاط لمظاهر الضعف وحيرته .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَصِحَّتك قَبْل سَقَمك » :

أنت صحيح الآن ، قد تكون شابًا وصحيحًا ، ويوجد شاب مريض فلا أعرف متى يأتيني المرض .

فلما تكون عندك فترة شباب وصحة فاستغلها واعمل النافع ، النافع الذي قد ينفعك فيما إذا جاء المرض أو جاءت الكهولة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَغِنَاك قَبْل فَقْرك » :

إذا كنت غنيًا فابذل الخير حتى يكون لك رصيدٌ إن افتقرت ، فكما أعنت غيرك يعينك سواك .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَفَرَاغك قَبل شُغلك » :

مشغولٌ بماذا ؟

مشغول بعافيتي ، أريد أن أصح ، وأريد أن آخذ دواء ، وأريد كذا ، وأريد كذا ، وكذا .

فانتهز فرصة فراغك من الأشياء ، واعمل أشياء تنفعك وقت المشاغل الطارئة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَحَياتك قَبل مَوْتك » :

أنت ستموت حتمًا ، فخذ هذه الحياة منفعة لك قبل الموت فينقطع عملك .

وإذا ما أردت أن تبقى بعد عملك ، فاترك عملاً صالحًا يُجدد لك العمل بعد وفاتك : ولد صالح يدعو له ، صدقة جارية ، علم ينتفع به(١) .

○○○

(١) ففي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ : إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » رواه مسلم [١٤/١٦٣١] .

الوصية السابعة عشر

كن في الدنيا كانك غريب

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أَخَذَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبِي فَقَالَ : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يقول : « إذا أَمْسَيْتَ ، فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ »(١) .

الشرح

○ قوله ﷺ : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ »

الدنيا تغرُّ . لماذا ؟

لأن الإنسان وهو فيها له قُدرة ، ويقدر يعمل ، ويقدر يتكلم ، ويقدر يجري ، ويقدر كذا .

(١) رواه البخاري [٦٤١٦] . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى فى الفتح [٢٣٥،٢٣٤/١١] : « وَقَالَ اِبْن بَطَّال : لَمَّا كَانَ الْغَرِيب قَلِيل الِانْبِسَاط إِلَى النَّاس بَلْ هُوَ مُسْتَوْحِش مِنْهُمْ إِذْ لَا يَكَاد يَمُرّ بِمَنْ يَعْرِفهُ مُسْتَأْنِس بِهِ فَهُوَ ذَلِيل فِي نَفْسه خَائِف ، وَكَذَلِكَ عَابِر السَّبِيل لَا يَنْفُذ فِي سَفَره إِلَّا بِقُوَّتِهِ عَلَيْهِ وَتَخْفِيفه مِنَ الْأَثْقَال غَيْر مُتَشَبِّث بِمَا يَمْنَعهُ مِنْ قَطْع سَفَره مَعَهُ زَاده وَرَاحِلَته يُبَلِّغَانِهِ إِلَى بُغْيَته مِنْ قَصْده شَبَّهَهُ بِهِمَا ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَة إِلَى إِيثَار الزُّهْد فِي الدُّنْيَا وَأَخْذ الْبُلْغَة مِنْهَا وَالْكَفَاف ، =

ويظن أن هذا سيدوم له .

نقول له : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

بل كل شيء قابل للأغيار .

ومادام كل شيء قابل للأغيار ، فلا تغتر أنت بما يمكن أن يزول منك .

إن اغتررت بقوة ؛ فاذكر أنك قد تَضْعُف .

إن اغتررت بصحة ؛ فاذكر أنك قد تمرض .

إن اغتررت بمال ؛ فاذكر أنك قد تفتقر .

إن اغتررت بسلطان ؛ فاذكر جيدًا أنك يمكن أن تخرج عن سلطانك برضاك أو قهرًا .

= فَكَمَا لَا يَحْتَاج الْمُسَافِر إِلَى أَكْثَر مِمَّا يُبَلِّغهُ إِلَى غَايَة سَفَره فَكَذَلِكَ لَا يَحْتَاج الْمُؤْمِن فِي الدُّنْيَا إِلَى أَكْثَر مِمَّا يُبَلِّغهُ الْمَحَلّ . وَقَالَ غَيْره : هَذَا الْحَدِيث أَصْل فِي الْحَثّ عَلَى الْفَرَاغ عَنْ الدُّنْيَا وَالزُّهْد فِيهَا وَالِاحْتِقَار لَهَا وَالْقَنَاعَة فِيهَا بِالْبُلْغَةِ . وَقَالَ النَّوَوِيّ : مَعْنَى الْحَدِيث لَا تَرْكَنْ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَتَّخِذهَا وَطَنًا وَلَا تُحَدِّث نَفْسك بِالْبَقَاءِ فِيهَا وَلَا تَتَعَلَّق مِنْهَا بِمَا لَا يَتَعَلَّق بِهِ الْغَرِيب فِي غَيْر وَطَنه . وَقَالَ غَيْره : عَابِر السَّبِيل هُوَ الْمَارّ عَلَى الطَّرِيق طَالِبًا وَطَنه ، فَالْمَرْء فِي الدُّنْيَا كَعَبْدٍ أَرْسَلَهُ سَيِّده فِي حَاجَة إِلَى غَيْر بَلَده ، فَشَأْنه أَنْ يُبَادِر بِفِعْلِ مَا أُرْسِلَ فِيهِ ثُمَّ يَعُود إِلَى وَطَنه وَلَا يَتَعَلَّق بِشَيْءٍ غَيْر مَا هُوَ فِيهِ وَقَالَ غَيْره : الْمُرَاد أَنْ يُنْزِل الْمُؤْمِن نَفْسه فِي الدُّنْيَا مَنْزِلَة الْغَرِيب فَلَا يُعَلِّق قَلْبه بِشَيْءٍ مِنْ بَلَد الْغُرْبَة ، بَلْ قَلْبه مُتَعَلِّق بِوَطَنِهِ الَّذِي يَرْجِع إِلَيْهِ ، وَيَجْعَل إِقَامَته فِي الدُّنْيَا لِيَقْضِيَ حَاجَته وَجِهَازه لِلرُّجُوعِ إِلَى وَطَنه ، وَهَذَا شَأْن الْغَرِيب . أَوْ يَكُون كَالْمُسَافِرِ لَا يَسْتَقِرّ فِي مَكَان بِعَيْنِهِ بَلْ هُوَ دَائِم السَّيْر إِلَى بَلَد الْإِقَامَة » .

فلابد أن تأخذ في بالك أنك ابن أغيار ، ومادمت ابن أغيار فلا يغرك حالٌ عن مآل . بل لابد أن تجعل المآل أمامك ، وتستصحب معه حالك ، ومادام حالك حسنًا ، فاغتنمه لينفعك في مآلك .

وقول ابن عمر رضي الله عنه : « وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح » .

يعني معناها كما قلنا : إن الموت ليس له حد .

ومادام ليس له حد فانتظره في أي لحظة .

ليس فقط لا تنتظر الصباح ، بل يقول : طرفة عين .

إنك إذا فتحتها بحياة لا تأمنُ أن تقبضها إلا بموت .

فمادامت المسألة كذلك ، فانتهز فرصة وجودك على طريقة السلامة حتى تستعد إلى وقتٍ لا تنتفع لك فيه بقوةً ، ولا بذاتية ، ولا بعلوم .

وقوله : « وخذ من صحتك لمرضك » .

مثل ما قلنا أيضًا .

وقوله : « ومن حياتك لموتك » .

فالدنيا ساعة فاجعلها طاعة .

الدنيا ساعة ؛ لأنني لا أعرف متى سأموت .

ولذلك : ما مضى فات ، والمؤمَّلُ غيبٌ ، ولك الساعة التي أنت فيها الآن .

الذي فات ، فات والآتي لا نعرف ما هو .

فعمرك هو الساعة التي تعيشها .

فاجعلها دائمًا في مفيدٍ لك ، ولا تجعلها في معطب .

اللَّهم لا تشغلنا بأوقاتنا عما يأتينا من المستقبل ، واجعل حركتنا الآن مُجدية لنا فيما يستقبل من الزمان .

○○○

الوصية الثامنة عشر

من وصاياه صلى الله عليه وسلم في السفر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ ، وَشَرَابَهُ ، وَنَوْمَهُ فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ »(١) .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ »**

السَّفر : الانتقال من مكان الإقامة إلى غير مكان إقامة .

ومكان الإقامة دائمًا هو مكان الراحة ؛ فكل إنسان أعدَّ لنفسه المسكن الذي يُريحه ، في البيئة التي تُريحه ، في مواقع الفائدة التي يتطلبها ، ولذلك لا يسكن إلا في مكان يكون فيه مسائل حياته موفَّرة .

فإذا ما سافر أولاً : ترك أهله الذين يأنس بهم ، وترك أولاده الذين عواطفه معهم . وترك حياته الاستقرارية إلى حياةٍ غير مستقرَّة .

فمادام ينتقل إلى حياة غير مستقرَّة يُصْبح كل بُقْعة يَمُرُّ بها لها تَفَاعُل خَاص غير تَفَاعُل بيئته ، فقد تكون بيئته معتدلة في الحرارة ، ثم ينتقل إلى بيئة غير مُعْتدلة في الحرارة ؛ برودة أَوْ حَرَارة ، فيلزم أن يتحمل .

(١) رواه البخاري [١٨٠٤] ، ومسلم [١٩٢٧/١٧٩] .

لذلك كان السَّفَر قِطْعة من العَذَاب ؛ لأنه يُخرجك عما اعتدتَّه مع نفسك ، مع أهلك ، مع أولادك ، مع بيئتك ، مع مصالحك ..

فيكون قطعة من العذاب .

ولذلك رخَّص الشَّارع في الصلاة التي هي عماد الدين .

* رخَّص لك : أنْ تقصرها ، فالأربعة تجعلهم اثنين . لماذا ؟ لأنه لا يريد أن يطيل عليك الأمد .

* ثم رخَّص لك أنْ تجمع ، حتى لا يجمع عليك أن كل وقت تتلهَّف وتتحينَّ ، فالعصر والظهر ، والمغرب والعشاء ، الذي يطيل لك مسافة الراحة أو مسافة ..

– فإذا أردت أن تطيل مسافة الراحة ، فتجمع الظهر والعصر جمع تقديم في أول الظهر ، ثم تؤخر المغرب والعشاء جمع تأخير ، فتنتج لك مرحلة طويلة غير مشغولة بشيء .

– وإذا أردت أنْ تُقَصِّر المدة التي تجتمع فيها للعبادة ، فاجعل الظهر والعصر جمع تأخير ، قبل ما تغيب الشمس ، وبعدما تنتهي من الصلاة تكون الشمس قد غابت فتجمع العشاء والمغرب جمع تقديم ، فتكون قد أخذت فترة .

– فإما أن تطيل أمد الراحة أو تطيل أمد العبادة .

* وأيضًا المسح على الخف : بدلاً من أن يمسح على الخف في الإقامة يوم وليلة ؛ يمسح عليه في ثلاثة أيام ، فهذا كله تيسير ؛ لأنك خرجْتَ عن نظام اعتدته وحياة رتيبة ألفتها .

وقوله ﷺ : « يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ ، وَشَرَابَهُ ، وَنَوْمَهُ » :

الطعام : لأنك لن تأخذه ، فإنهم كانوا يعدُّون لك في مطبخك وتقعد لتأكل من مطبخك ، لكن في السفر أنت ستأكل طعام من البيئة التي ستذهب إليها ، فلا تعرف هل يوافقك أم لا يوافقك ، فقد تركت الطعام الذي ألفته ، وستأكل طعام آخر لا تعرف ما هو .

وأيضًا : الشراب ؛ فإن كنت تشرب من زجاجة مثلاً مثلَّجة ، كذا ، ماء مكرر ، فلن تجد مكررًا ..

وبعد ذلك تنام في الأماكن المعدَّة لأن تنام فيها ، لكن ليس تنام في الوقت الذي تحبه ، بل هي أماكن مخصوصة ، التي فيها نُزل الحياة ، التي يسمونها « منازل الطرق » .

فكل شيء يتغير ، يُغيِّر حياتك .

فالنوم نعمة من الحق تبارك وتعالى ، فلو لم ينم الإنسان ، فما مصير هذا الإنسان ؟

الله تعالى يُنبِّهنا إلى هذا بقوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : ٧١] حتى تتحركوا لحركة الحياة .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : ٧٢] .

فكل حركة تُورث تعب في الأعضاء ، فلابد أن ينام على القدر الذي يُعيد إليه راحته ليستأنف عمله من جديد .

فالليل والنهار الاثنان متكاملان ، ليسا متضادين . متكاملين يعني : هذا له مهمة وهذا له مهمة ، فلولا مهمة الليل لما وُجد نشاط النهار ، ولولا نشاط النهار لما استقرَّ لك نوم في الليل . فأنت مطالب بحركة وسكون ، والسكون لازم حتى تتحرك في اليوم المقبل بنشاط .

ولذلك فعندما يجرب الإنسان ، وقد طرأت له مسائل تسهره ليلاً طويلاً متصلاً باليوم السابق ، فلم ينم فيه . فتجده طول النهار متعبًا ، ويريد أن يستريح ، ثم إنه عندما ينام فلابد أن يُعَوِّض ، فسينام نومًا طويلاً يعوض عليه الذي فات . فالنوم معناه : راحة الجسد من متاعب حركة النهار .

فهذا من آيات الله ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم : ٢٣] .

فلكل شيء مهمة : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۞ ﴾ [الليل] . كل واحد له مهمة .

الليل والنهار نوعان لزمن ، هذا النوع لا يضاد هذا ، لكن يُكمِّله ويعينه ، فلا أقول إنَّ الليل ضدُّ النهار ، إنما هو متكامل معه .

كما أن الأنثى ليست متعاندة مع الذكر ، بل متكاملة معه ، هذا له مهمة ، وهذه لها مهمة ، فالرجل مهمته الكفاح ، والمرأة مهمتها العاطفة على الإنجاب وعلى الحمل ، كل واحد له مهمة .

ولذلك يقول : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل : ٤] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ »

يعني : مراده من سفره ، لا يُغْرِه أنه قضى أشياء ، بل يتذكر : لماذا جئت إلى هنا ؟ من أجل مصلحة عيالك وبيتك ، فإياك أن تنسى هذا ، حتى ترجع إليهم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ » .

وحتى أيضًا إن لم يكن عنده أولاد ومتزوِّج ، فله غريزة ، وهذه الغريزة تطلب منه أشياء خاصة لا تؤديها إلا امرأته ، فحتى لا يتشعَّب خاطره في المرائي التي يراها ، نقول له : ارجع إلى أهلك لتجد راحتك .

اللَّهم إني أسألك أن تُوفقنا إقامةً ، وأن توفقنا ظعنًا ، وأن توفقنا في كل حركاتنا ، وفي كل أزمانك التي خلقتها لنا .

○○○

الوصية التاسعة عشر

من أذكار الصباح والمساء

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لفاطمة رضي الله عنها : « مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ : يَا حَيّ يَا قَيُّوم بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّه ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ »(١) .

الشرح

الحياةُ هي أَصْلُ كل صفة من صفات الكمال .

لأنني لا أقول فلان قادر إلا إذا أثبت له الحياة .

وفلان سَمِيعٌ ، إلا إذا أثبت له الحياة .

وفلان حَكِيمٌ إلا إذا أثبت له الحياة .

فكلمة « يا حيّ » تعني : يا مناط صفات الكمال كلها بحياتك .

وكلمة : « قيوم » تعني قائم بكل أمورك ؛ لأنني خلقت لك عَقْل يُدير حركتك ، وخلقت لك جوارح تنفعل لمرادات عقلك وتوجيهاتك .

فأنت في كل وقت محتاج إلى « القيوم » الذي يقوم على أمرك سواء كنت يقظان أم نائم ، راضٍ أو غضبان هو « القيوم » .

(١) رواه النسائي في الكبرى [١٠٤٠٥] ، والحاكم في المستدرك [٧٣٠/١] ، وقد حسنه الألباني في الصحيحة [٢٤٥٧] .

فالله تعالى يريد منا أن نلحظ أننا نصنع كل شيء بقيوميته ومدده لنا .

لو لم يكن الله قيومًا - يُعْطيني مدد - ما كنت عملت حركة .

لو لم يكن الله قيومًا ما كان يُعطيني سرعة نُعاس ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال : ١١] هو الذي يبعث لكم النُّعاس .

فالحياة أَصْل كل كمال في الصِّفات .

والقيّومية أصل كل شيء في نَفع العَابد من المعبود .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ » .

« الصباح والمساء » هذا له مهمة وهذا له مهمة ، عمل هذا ليريحيني بالليل ، لكي أعمل بنشاط في الصباح ، وجعلني أنشط في الصباح لكي أرتاح بالليل . فهذا له مهمة وهذ له مهمة .

فخذ الصباح بمهمته ، وخُذ المساء بمهمَّته .

ولكن قد تضطر بعض النَّاس ظُروف في أن لا يكون لهم نَهار ، أَوْ نَهارهم يَصيرُ ليلاً وليلهم يَصيرُ نهارًا ؛ مثل القائمين على مَصَالح النَّاس في أمْنهم حين ينامون . لا ينامون بالليل لكن ناموا بالنهار .

فالله تعالى ضمن هذه المسألة فقال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم : ٢٣] ؛ لأن هناك أُناس لا ينامون بالليل .

مثل : القائمين على مصالحنا ، والذين يحرسوننا ، والذين يخبزون لنا العيش الذي سنأكله ، والذين يصطادون لنا السمك بالليل لكي يباع لنا بالنهار ، كل هؤلاء الذي يعملون ويَسْهرون من أجلك ، وأنت نائم . فاعطه فرصة لكي ينام . ومتى ينام ؟ ينام بالنهار ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم : ٢٣] .

لكيلا تتوقف مصلحة العباد لأن هناك مصالح لا تقضي إلا ليلاً ، ومصالح لا تقضي إلا نهارًا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « يَا حَيّ يَا قَيُّوم بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ » :

معنى الرحمة هو أن يرحم الراحم المرحوم فيأخذه بحنان في كل شيء ، إن زَلَّت نفسه بشيء لا يُعَجِّل له العقوبة .

ولذلك قال : ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

يعني لا يأخذكم في كل حاجة ، إنما يعمل لكم « أوكازيون » للطاعة : صلاة الصبح كفارة ، وصلاة الظهر كفارة لما قبلها ، وصلاة العصر كفارة لما بعدها . كل هذا لكي تستقبل كل وقت بغسل سيئات ما بين الوقتين

والرحمة تطلق على أن لا يدخل الداء الجسم .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

شفاء إن كان الجسم فيه داء ، ورحمة لئلا يجيء الداء .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّه » :

أنا خلقتني لأضرب في الحياة بشئون مختلفة ، فحركة الحياة تحتاج عضلات لكي أفعل الأفعال الشاقة ، وتحتاج سمعًا لأسمع ما ينفعني وأنتهى عما يضرني ، وأعطيتني عينين لأبصر بهما ما في الكون من آياتك لأزداد بهما إيمانًا وأبصر بهما حركتي ، أعطيتني نورًا حتى لا أتعثر في طريقي .

مثلا الواحد لو عاش في ظلمة لا يهتدي في الطريق فالحق يبعث لي نور بالنهار لكي لا أصطدم بشيء أعلى مني فيحطمني أو بشيء دوني فأحطمه ، فيعمل لي نور ، ولذلك نأتي بالليل ونعمل « ونّاسة » .

« ونّاسة » يعنى أنا بالليل أقوم بإطفاء النور ، وقد أُمرنا بإطفاء المصابيح إذا رقدنا(١) .

وهذه آية صحية ؛ ففي العصر الحديث قالوا : امنع الأشعة وأنت نائم ؛ لأن للأشعة عمل في جسمك فحركة حياتك تستقبل وتنقب ، إنما وأنت نائم تضرك .

لكنني في البيت أريد أن أذهب لدورة المياة أمشي مع أنني أعرف خريطة بيتي عارف أن الصالة هنا حجرة النوم هنا ، وعلى يميني الباب ،

---

(١) وفي الحديث عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « أَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ إِذَا رَقَدْتُمْ ، وَغَلِّقُوا الْأَبْوَابَ ، وَأَوْكُوا الْأَسْقِيَةَ ، وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ ، وَالشَّرَابَ » ، وَأَحْسِبُهُ قَالَ : « وَلَوْ بِعُودٍ تَعْرُضُهُ عَلَيْهِ » رواه البخاري [٥٦٢٤] .

وسأذهب للصالة ، والصالة فيها كذا ، وعارف مواقع الأشياء في بيتي ، ومع ذلك إن مشيت وأنا عارف مواقع الأشياء ضروري أصطدم بكرسي بباب لكن اللّٰه أعطاك « ونَّاسة » تضيء لك حاجتك بضياء بسيط ليلاً ، لكن هذه « الوَنَّاسة » تضيء وتستقبل من القوي وعندما تستقبل من القوى تعطيني شيء من النور بالليل ، غابت الشمس لكن هناك ناس متصلة حركتها يحتاجون لشيء يضيء فيعطيهم ضوء حليم ، نجوم القمر ، لكي لا تصطدم بأقوى منك ولا تصطدم بأضعف منك إن اصطدمت بأقوى منك حطمك ، وإن اصطدمت بأدنى منك حطمته .

وقوله صلى اللّٰه عليه وسلم : « وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ » :

لأنك إن وَكَّلتني إلى نفسي هناك أشياء فوق مستوى قوتي ، فالحق سبحانه عمل لكل واحد طاقة . علمي له طاقة ، وبصري له طاقة ، فإن لم تكلني وتكن ورائي في كل شيء فهناك أشياء تعزُّ على أسبابي ومادامت تعز علي أسبابي فأتذكر أن لي رب .

سيدنا موسى عليه السلام لما قالوا له هذا فرعون وراءك والبحر أمامك لو وكلنا إلى ما فيه من مواقفه الطبيعية من الكون ومن العدو .

ففرعون ورائي وأمامي البحر ، يعني أُمْسَك وأُقْتَل أو أغرق في البحر فقال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

أي : أنا لست وَحْدي ، فلما قال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ لم يُوكلك لنفسك ؛ لأن هناك أشياء فوق طاقة النفس .

قال : ﴿ اَضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء : ٦٣] .

ضرب البحر – وهو ماء – فصار كل فرق كالجبل .

الماء صار جبلاً ، ولما طلع للصحراء وشربوا ، قال له : اضرب الجبل خَرَجَ الماء ، فلم يُوكله لنفسه ؛ لأن الأسباب عجزت ، فما عجزت عنه الأسباب يقضيه عنك رب الأرباب .

اللَّهُمَّ إنا نسألك أن تكون دائمًا في بالنا لتعيننا على أحوالنا التي فوق قدرتنا .

○○○

الوصية العشرون

من صفات المؤمن

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »(1) .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ » .**

القوة هي الطاقة التي تُعين على الفعل .

نبحث في هذا الفِعْل ، هل هو شر ؟ هل هو خير ؟

فإن كان الفِعْل شر كانت القوة فيه مذمومة ، وإن كان فيه خير تبقى القوة محمودة .

(1) رواه مسلم [٣٤/٢٦٦٤] .
قال النووي فى شرح مسلم [٤٦٧/٨] : « وَالْمُرَادُ بِالْقُوَّةِ هُنَا : عَزِيمَةُ النَّفْسِ وَالْقَرِيحَة فِي أُمُورِ الْآخِرَة ، فَيَكُون صَاحِب هَذَا الْوَصْف أَكْثَر إِقْدَامًا عَلَى الْعَدُوّ فِي الْجِهَاد ، =

فإذا كان الإنسان عرف هذا المقياس فيدعو الله : « اللّهم اجعل قوتي فيما أَحببت ، واجعل ضَعْفي عما كرهت » .

يعني الشيء الذي تحبه اجعل لي فيه قوة ، والقوة ليست قوة البدن فَحَسْب ، وإنما قوة كل شيء : قوة علم ، قوة حِلْم ، كل قوة .

المؤمن القوي في كل صِفَاته خَيْر من المؤمن الضعيف ، إنما كونه مؤمن لا نقول : ليس فيه خير ، هو فيه خير الإيمان ، ولكن القوي فيه خير القوة التي زادت ؛ لأن خير الإيمان لك وخير القوة عائد إلى سِوَاك من اخوتك المؤمنين .

وقوله ﷺ : « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ » :

الله تعالى خلقنا ، وخلق لنا جوارح فيها طاقات الحركة ، وطلب منا أن تكون لكل قوة من قوانا ، ولكل حركة من حركاتنا مجال إلا أنه أراد أن يكون مجال كل حركة قادرة على الخير والشر أن تكون في عمل الخير .

= وَأَسْرَع خُرُوجًا إِلَيْهِ ، وَذَهَابًا فِي طَلَبه ، وَأَشَدّ عَزِيمَة فِي الْأَمْر بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْي عَنْ الْمُنْكَر ، وَالصَّبْر عَلَى الْأَذَى فِي كُلّ ذَلِكَ ، وَاحْتِمَال الْمَشَاقّ فِي ذَات اللَّه تَعَالَى ، وَأَرْغَب فِي الصَّلَاة وَالصَّوْم وَالْأَذْكَار وَسَائِر الْعِبَادَات ، وَأَنْشَط طَلَبًا لَهَا ، وَمُحَافَظَة عَلَيْهَا ، وَنَحْو ذَلِكَ . وَأَمَّا قَوْله ﷺ : « وَفِي كُلّ خَيْر » فَمَعْنَاهُ فِي كُلّ مِنْ الْقَوِيّ وَالضَّعِيف خَيْر لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي الْإِيمَان ، مَعَ مَا يَأْتِي بِهِ الضَّعِيف مِنْ الْعِبَادَات ... « فَإِنَّ لَوْ تَفْتَح عَمَل الشَّيْطَان » أَيْ : يُلْقِي فِي الْقَلْب مُعَارَضَة الْقَدَر ، وَيُوَسْوِس بِهِ الشَّيْطَان . هَذَا كَلَام الْقَاضِي » .

فمثلاً : « عين الإنسان » تُبَصِّره بمواقع الأشياء ، وتُبَصِّره قبل أن يَصِل إلى مواقع الأشياء إلى من خَلَق الأشياء .

« **يدك** » : وَظِّف دائما هذه الجارحة في الخير .

« **لسانك** » : صالح أن يقول : « لا إله إلا الله » ، وعند الكافر صالح إلى ضد ذلك .

الجارحة نفسها نفذت مرادك إن كان خيرا أو شرا .

فالله تعالى خلق الجوارح منفعلة لمُرادِك إن أردت بها خيرًا أطاعتك ، وإن أردت بها شرًا أيضًا أطاعتك :

« **فالرِّجل** » التي نسعى بها إلى المسجد ، تسعى بها أيضًا إلى الخَمَّارة والعياذ بالله .

و « **يدي** » التي أبطش بها تَطَاوعني إن أردت أن أُرَبِّط بها على كتف اليتيم ، وتطاوعني إن أردت بها لطم إنسان

و « **لساني** » يعينني أن أقول كلمة الخير للناس ، ويعينني على أن أقول كلمة الشَّرِّ للناس .

إذن هذه الطاقات لها حركة أنت تُسَيِّرها بِمُرَادك .

وما الذي يُكَيِّف المُراد ؟

مُرادُ الخَير يُكلّفه منهج الله .

ومُرَادُ الشَّر أيضًا يُكلفه منهج الله .

الخير الذي يَسير في الشر يعطيك لذة عاجلة .

والخير الذي يعطيه منهج الله يعطيك لذة آجلة ، ولذة العاجلة مهما بلغت فيها يخيفك منها شيئين :

فالشيء الذي أَتَنَعَّمُ به لا أضمن أن يظل معي ، ممكن يذهب بدليل أنني شاهدت أناسًا مُتَنَعِّمين لنتهى أمرهم إلى كذا .

وهب أنه دام أنا لا أدوم له ، أُخذ من النعمة فإما أن أُخذ من النعمة وإما تُؤْخَذ مني النعمة !!

فهذه الدنيا إما تفوتني النِّعْمة بتغيير الحال أو أنا أفوت النِّعمة بالموت .

فاعمل لخير من ذلك إلى مكان لا تذهب عنك فيه النعمة ، ولا تذهب أنت عنها بالموت وذلك لا يتأتى إلا في الآخرة .

فاحرص على ما ينفعك في أمور الآخرة التي يطول نفعها ولا ينقطع ، ويَطُول وجودك معها فلا تَمُوت ، لكن مادام الأمر هكذا فلابد أن تقدم أمور الآخرة على أمورك .

ولذلك قيل : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا »(١) .

الناس تفهم المعنى : كَبِّلْها لأن عمرك طويل ؛ لكن المعنى : ما لم تدركه اليوم تُدْركه غدًا ، لكن أمر الآخرة عجلة ؛ لأنني لا أدري الآخرة متى تنتهي .

(١) يروى كحديث ، ولا أصل له مرفوعا ، راجع الضعيفة للألباني [٨] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ... »

كلمة « لو » امتناع الامتناع .

فالزمن لا تستطيع أن تقول لو فعلت فيه لأنه انتهى ومضى ، فيبقى تعب عقل ومدخل للشيطان .

ولذلك الحق سبحانه يقول لنا : كثيرًا ما تخطئون في دعائي ولا يُرْضيكم قضائي لكم في الأمور .

تقول : يا رب اعمل لي كذا ، يا رب اعمل لي كذا .

أنت تدعو بالشر وإن ظننت أنك تدعو بالخير ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

لو أن الله تعالى استجاب لهذه المرأة التي دعت على ابنها قائله : إلهي اشرب نارك !!

ماذا يكون موقفها لو أماته وأشربها ناره ؟!

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ لا تتعجل ، لأنك ستعرف الخير لهذه المصيبة آية ، وستعرف الشر لهذه النعمة التي تريدها آية !!

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ » :

مادام الله قد قدر فلابد أن يكون قدره خيرًا ، ولذلك قالوا : أن على الإنسان حين يحاسب نفسه ألا يفزعه الحدث الذي يقع به حتى يعرف من أوقعه به .

فالحدث لا ينفصل عن فاعله ؛ فإنك إن دخل عليك ابنك ووجهه يَشْجب دمًا فالسؤال الذي ستسأله له ؟

من الذي ضربك ؟

قبل ما يأخذك منظر الدم تريد أن تعرف من الذي فعله ؟

من الذي عمل فيك هذا ؟

إن قال لك عمي ، يقول عمه لك : أنا جالس والولد يجرى أمام السيارة ولم ألحق إلا وجهه !!

فهذا حبيب وليس عدو .

فإياك أن يفزعك أي حدث حتى تعرف من أوقعها بك .

فإن كان الذي قد أوقعها حبيب ، فلابد أنه أوقعها لمصلحة ، وإن الذي قد أوقعها بك عدو فالعكس .

مثال آخر : هذا الولد الذي رسب في الامتحان نريد أن نعرف قبل أن نفزع من مصيبة رسوبه وما السبب في رسوبه ؟

السبب : لم يذاكر ، وهذا أمر طبيعي أن يرسب ويذوق لذعة الرسوب لكي يتعلم ويذاكر لكي ينجح .

فالمصيبة جاءت لكي ينجح .

فأنت رسبت لأنك لم تذاكر ، فجاء الرسوب لكي يعاتبك أصابتك مصيبة واحدة فعلمتك درسًا متكررًا .

أما إن كنت مذاكرًا وحافظ للعلوم ودخلت الامتحان فجاءني دوار ، فأقول : ليس مني ولكن من الله .

ولها حكمة ؛ لأن الله لا يأتي لصنعته ويهدمها .

والحكمة هنا لماذا ؟

يمكن أغتر بنفسي ! يمكن أكون نجحت ولكن ليست درجاتي هي التي أريد الحصول عليها لأصل بها للكلية التي أريدها !!

يمكن أن أكون نجحت وأتعرض للحسد .

فإذا كان الأمر ليس مني وجاء من الله فما قضاه الله فهو الصَّحيح .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » :

فهذا العالم ليس ميكانيكا ،فإن فيه إرادة عليا ، إرادة من خلقه .

اللَّهُمَّ إني أسألك أن لا تجعل المصائب إلا عونًا لنا على اليقين بحركتنا وعلى اليقين بحكمة خالقها .

○○○

الوصية الحادية والعشرون

في ذم الظلم والشح

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »(١) .

الشرح

○ **قوله ﷺ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .**

الظلم : هو تَعَدِّي على حق الغير سواء كان حق الغير يطلب منك أداؤه أو يطلب منه أداؤه لك .

تجاوز الحد في طلب الشيء ؛ لأنك أنت تريد أن تأخذ دمك من عرق غيرك فهذا الحق يختلف باختلاف المأخوذ منه هذا الحق :

فإن كان مساويًا لك يكون الظلم من بشر لبشر .

(١) رواه مسلم [٢٥٧٨/٥٦] وقال النووي في شرحه لمسلم [٣٧٩/٦، ٣٨٠] قوله ﷺ : « وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » قَالَ جَمَاعَة : الشُّحّ أَشَدّ الْبُخْل ، وَأَبْلَغ فِي الْمَنْع مِنْ الْبُخْل . وَقِيلَ : هُوَ الْبُخْل مَعَ الْحِرْص . وَقِيلَ : الْبُخْل فِي أَفْرَاد الْأُمُور ، وَالشُّحّ عَامّ . وَقِيلَ : الْبُخْل فِي أَفْرَاد الْأُمُور ، وَالشُّحّ بِالْمَالِ وَالْمَعْرُوف وَقِيلَ : الشُّحّ الْحِرْص عَلَى مَا لَيْسَ عِنْده ، وَالْبُخْل بِمَا عِنْده .

وأنت لماذا تظلمه ؟ لأنك تريد أن تأخذ شيئًا من جهده ومجهوده وكفاحه وأنت متبطر عنه .

وإن كانت المسألة حق أعلى يكون هذا الظلم هو الظلم العظيم .

وذلك مثلما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ؛ لأنك جعلت الموجود - كما قال الملاحدة - غير موجود .

قلت : ليس هناك إله !!

أو جعلته موجودًا وجعلت له شركاء .

أدخلت أناسًا ليس لهم عمل في أن يأخذوا حقًّا من حقوق الله .

ومادمت ألِفت هذا الظُّلم فمنعت الموجود تكون ملحدًا والعياذ بالله ، أو أشركت معه ما ليس له في الألوهية شيء يكون هذا هو الظلم الأعلى ولذلك قال : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

أما في المُساوي فإذا ظلم إنسان إنسان أولا : الذي حركه على الظلم فساد قلبه بالحقد ، أو فساد قلبه بالحسد ، أسرق منه ، أغش ، أنهب ، أرشي حتى أسلب منه أي حق .

فهذا يعمل فَسَادٌ في حركة الحياة ؛ لأن الذي لا يعمل إن أخذ من العامل ثمرته زَهَّد الناس في العمل ، يقول : أنا أعمل وغيري يأخذها .

والله يريد حركة الحياة حركة موصولة مستمرة .

فإذا كنت لا [illegible] إلا بجَهْدي وبعرقي ، فالكل هنا يَعْمل .

وعندما يعمل الكلّ يحدث تَوَازن ، وتصير اليد الباذلة للعاجز عن الحركة فقط .

لكن المتحرك وعنده طاقة يجيء ويأتي ليأخذ عرقي . فهذا لا يصح .

الذي لا يوجد عنده يأتي ويأخذ مني بحق الله المشروع له : ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٩] .

من أراد أن يعيش في الحياة عيشة سوية ينظر للقمة العليا فلا ينكر وجود الله ؛ لأنه بذلك يظلم الموجود بأنه قال : معدوم ، وظلمَ الواحد بأن له شركاء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ لو جاء الذباب على طبق العسل لا يستطيع أحد أن يأخذ منه العسل الذي أخذه . لا يمكن .

وصدق الله العظيم : ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

وإن كان مساويًا لك : مادام مساويًا لك أنت مثله لك طاقته ولك عقله ولك تفكيره ، لماذا تبيح لنفسك أن تأخذ حركة حياته وأنت تبقى متعطل ؟

حينئذ يصير العالم كله بلطجيًا ، يريد أن يعيش على حركة غيره .

يقال له : يا بلطجي ، يا من تريد أن تأخذ ما لغيرك لو أن غيرك صنع ما تصنع لم تجدوا ما تأخذوه .

وقوله ﷺ : « وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » :

الشح : هو أن تبخل بما في مجهودك وقدرتك ، وهو أشد من البخل ؛ لأن البخل قد تبخل على إنسان لأنك تكرهه إنما الشح حتى عن نفسك .

فالشح طبع في الذات ، أما البخل فطبع في الإنفاق وفي المفعولية .

ولذلك الشحيح يلبس القمبص مرقعًا وهو عنده ، ويأكل كسرة الخبز بدون إدام ، بلغ به البخل حتى بخل عن نفسه .

نقول له : أنت مُغَفَّل ؛ لأنك إن لم تنتفع بما عِنْدك فَستتركه لوارث وهذا الوارث يَتَمَتَّع به .

أنت شَقِيتَ بِجَمْعه ، وهو يَسْعَد بإنْفَاقه ، فَأَنْت إذن غبي .

هناك نظرة أخرى وهي أن الشحيح عمل جميلاً في الذي سيرثه .

ولذلك ابن الرومي قال :

إنّ الأَشِحّاءِ أَسْخَى النّاس ناطبة لأَنَّهم مَلَكُوا الدُّنيا وَمَا انْتَفَعوا
لم يَحْرِمُوا النَّاس من بعض الذي ملكوا إلاَّ لِيعطيهمو كُلَّ الذي جَمَعُوا

فالشحيح يعمل في غيره جميلاً فرَبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ ، وجَمُوعٍ لِمُشِتٍ

وعندما يَشحّ الشحيح بالذي عنده سواء كان قريب أو على نفسه أو على عدو نقول له : أنت عملت في الكون ظاهرة .

وهذه الظاهرة تشجع الناس بأن يَشِحُّوا .

ومادام الناس يريدون أن يَشِحّوا مثلك فأنت هكذا لن تجد من يعول ومَن لا يقدر على العمل .

فأنت حينئذ عملت فَسَادًا في الكون ، وبالتالي يَتَعَدّى الفساد ذاتك ، وذوات من شَحَّ عليك .

أنت تعمل الحركة التي تخصك على قَدْرِ طاقتك ، حتى ليس على قدر حاجاتك فتأخذ من ثمرة حركتك ومازاد تجعله لمن لم يقدر على الحركة .

لماذا ؟ لتؤمن نفسك إن عجزت ؛ لأنك إن كنت قادرًا وتعطي غير القادر . تقول : أنا لو طرأ علي مرض وضعفت سأجد من الناس مَنْ يعمل معي كما عملت ، وسيعطونني كما أعطيت .

فأنت عملت سابقة تؤمن حياتك أنت .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ »

الشحيح عندما يشح على نفسه وأولاده ، فسيقتله أولاده ؛ لأنه منعهم من الخير .

يقول : حياة هذا الشَّحيح لا تَنْفعنا ، ولو كان في عطب لن يُخَلِّصه من العَطَب .

فهو سيعمل أشياء تسبب في أن دَمُه سَيُهْدر من المجتمع الذي كرهه ، ولو من أهله أو أحبابه . وهناك أُناس كثير فعلوا هذا .

ولذلك القاتل يُحْجَب من الميراث ؛ لأنه استعجل ما أَخرَّ اللَّه ؛ لأنه لما يموت أنت ستأخذه ، ولكنه استعجل حتى يرث .

فمعنى ذلك أن هناك وارث سيقتل المواريث حتى يأخذ المال ؛ لأنه لا يطوله وهو حيّ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » .

لأنّه لا يعطي أحدًا عنده حتى محارمه .

اللّهمَّ إنا نسألك شرَّ الشُّح حتى ندخل في قول اللّه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

الوصية الثانية والعشرون

النهي عن الدعاء على النفس والأولاد والمال

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ »(١) .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ »**

الدُّعاءُ على النَّفس لا يَتأتَّى إلا إذا كَرِه الإنسان حياته ، وكونك تدعو على نفسك دليلٌ على أنك لا تستطيع أن تعمل في نفسك حاجة .

فأنت تُحِبُّ الحياة لكن تريدها أن تأتي من غيرك ، وعند اليأس تقول : يَا رب خلِّصني من هذه الحياة !

ومعنى ذلك أنك كَرِهْت هذه الحياة وبالتَّالي كَرِهْت من قضى عليك ما أنت فيه مما سَبَّب لك كَرَه الحياة .

فبدل ما تدعو على نفسك قل : « يَا رب أَعِنِّي على أن أستكمل مَا كَرِهْتُ نَفْسي مِن أَجْله » .

(١) رواه مسلم [٩/٣٠٠٩] في أثناء حديث طويل لجابر بن عبد الله ، وهو عند أبي داود برقم [١٥٣٢] .

تدعو هذه الدَّعوة وتَطْلُب من اللَّه أن يُعينك بالطاعة ، وأن يُعينك بالقوة لتستطيع أن تُحقِّق لنفسك ما تُؤَمِّل .

لكن عندما تقول : « يا رب خُذْني » فمعنى ذلك أَنَّك كَرِهْت قَدَره فيك ، وَمَادمت كرهت قدره فيك فقد فارقت الحياة وأنت كاره لقدر اللَّه ، وبالتالى أنت بذلك تستحق عذاب أكثر من الذي تَودُّ التَّخَلُّص منه .

فما تريد أن تَتَخَلَّص منه مقره الدنيا وشيء عابر في الدنيا ، وأما الآخرة فهي باقية .

فادع لنفسك ، والشيء الذي كرهته في الحياة ، اسأل اللَّه أن يحببك فيه ، اسأل اللَّه أن يعينك بطاقة تحقق لك أن تحب ذاتك .

ومادمت تحب ذاتك فلابد أن تحب لها خير الدنيا والآخرة .

فالدنيا تجعلها مطية ووسيلة للآخرة .

وقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ » :

لماذا ؟ لأنه ربما أنتم رزقتم بهم (١) !

فالدعوة على الوَلَد تعنى أنك قد خَطَّأت اللَّه تعالى في أن جعلك تُنْجِب هذا الولد .

وهذه الأم التي تدعو على ولدها ولا يستجاب لها فهذا يدل على رحمة اللَّه !

(١) إشارة إلى قول اللَّه تعالى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء : ٣١] .

ولذلك قلنا في دعاء رمضان : « سبحانك يَا من تُصَوِّب خطأ الدُّعاء بأن لا تجيب »(1) ؛ لأنه قد يدعو الإنسان بالشر دعائه بالخير .

فإذا أُجيب أُعطي مُراده في الشَّرِّ .

فتصويب الدعاء هنا : أن لا يُجاب .

فهذه الأم التي تدعو على ولدها قائله : « إلهي أشرب نارك » لو أجابها الله ماذا يكون موقفها ؟ ستضجر !!

فدعائها تعبيرُ لسان ، لا تعبير وجدان !

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ » :

لأن أموالكم هي السبب في أن تكون مُعِينَةً لَكُم على حياتكم ، ومُعِينَةً لكم على أن تأخذوا الخير من البر بِغَيْرِكم .

فهذه هي الأموال التي يريد الله أن تحتفظوا بها .

أما أن تدعو على المال فلا .

فإنْ كنت قد أَخَذْتَهُ بِغَيْرِ طَرِيق الحِلّ فادع على نَفْسِك .

أما وقد أخذته بطريق الحلال فَقُل : اللَّهُمَّ أَتِمم عَلَيَّ نِعْمَتِك ، حتى أَبْذُلها فيما أَحللت من مَدَرَّات الخير .

(1) راجع كتاب الذكر والدعاء للشيخ رحمة الله تعالى عليه ، وهو من منشوراتنا فى مكتبة التراث الإسلامى .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّه سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً فَيستَجِيبَ لَكُمْ » :

هذا ما قلناه في المرأة التي دعت على ولدها قائلة : « أشرب نارك » .

لا تسأل اللَّه العطاء في شيء إنْ حدث يَحزنك وامْنَع نَفْسَكَ من أَن يَزل لِسَانك بها .

فَمُراد النَّبي ﷺ بهذه الوَصية أن لا ينفعل المرء عند الغضب انفعالاً قد يُخْرجه عن رُشْد الحقيقة ، ثم يندم عليه .

فالمطلوب منه عند الانفعال والغضب : أن يُغَيِّر وَضْعه إن كان قاعدًا يقوم ، وإن كان نائم يستيقظ ويقف ويتحرك يعمل نشاط حركي يغير مجري الدم في جِسْمه .

أسأل اللَّه أن ينبه الآباء إلى ما في هذه العظات والخير لهم في ذاتهم حين يتزوجون ، ولهم في ذاتهم حين يضاجعون ، ولهم في ذاتهم حين يُولد لهم .

ooo

الوصية الثالثة والعشرون

اجتنبوا السبع الموبقات

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » . قالوا : يا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ ؟ قال :

١- الشِّرْكُ باللهِ .

٢- والسِّحْرُ .

٣- وَقَتْلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ .

٤- وَأَكْلُ الرِّبَا .

٥- وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيم .

٦- والتَّولِّي يَوْمَ الزَّحْفِ .

٧- وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ »[1] .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقات ، قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله » :**

ذكر الشرك بالله أولاً ، لأن حقيقة الدين الأولى : أن لا تشرك بالله شيئًا .

(١) رواه البخاري [٢٧٦٧] ، ومسلم [١٤٥/٨٩] .

وكونه قال : « الشرك بالله » يدل على أن الإيمان بعدم الوجود ليس واردًا .

لا يصح أن يتأتى ؛ لأن الذي وُلِدَ فوجد كونًا فيه سماء وفيه أرض وشمس وقمر ، لا يمكن أن يدَّعى أنه فعله ؛ لأنه طرأ عليه .

ومادمت أنا طرأت عليه فلا أستطيع أن أدَّعى أنني عملته ؛ لأنه طرأ على وأنا ليست لي قُدرة ، مولود صغير ليس له قدرة .

ولهذا السبب قال الله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٣٨] . ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ؛ لأنهم طرأوا على موجود .

فالطارئ على موجود - وهو ضعيف - لا يقدر على شيء لا يستطيع أن يقول أنا عملته !!

فعدم الإيمان بالله حُمْق عَقْل ؛ لأنه لا يَرِد على العقل ؛ لأن الحاجات التي وُجِدت لي قبل أن أُخلق وأنا خُلِقْت فوجدتها . بل لابد أن يكون أحدًا أوجدها جاء الرسول فقال : أوجدها الله .

لم يدعيها أحد ، وصاحب الدعوى هي له حتى يأتي من يُعارضها .

لم يأْت بالوجود إنما جاء بالشِّرك « أن نشرك بالله » لم يقل : « أن تقول بعدم وجود الله » .

فوُجود الله أمْرٌ ضروري ، لكن الآفة أن تجعل له شريك في العمل .

لماذا ؟ ومن أين جاء هذا الشَّريك ؟

لما يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : الذي خلق الكون هو الله وَحْده . الذين جعلوا له شركاء .

فماذا قال الشركاء لما سمعوا هذه الدعوى ؟ هل قالوا : نحن الذين خلقنا ؟ بالطبع لا ؛ لأنه لا استطاعة لهم .

فإذا قال الله : أنا الذي خلقت ، ولم يأت شريك ويقول : أنا الذي خلقت ، أو أنا الذي كنت أُعاوِن !!

إذن .. بَطُلت بذلك قضية الشرك كما بطلت قضية الإلحاد بعدم وُجُود ؛ لأن صاحب الدعوى هي له إلى أن يقوم الدَّليل على غيرها .

مثلا : أنا جالس في بيتي ويجلس معي عشرة ثم انصرفوا ، فوجدنا حافظة نقود . فقلنا للولد : اتصل بالناس الذين كانوا هنا ، حتى نسألهم ممن وقعت حافظة النقود فظل يتصل وفوجئ أثناء ذلك بطرق الباب وجاء شخص وقال : أنا كنت عندكم جالس وتركت حافظة ولم يدعها أحد من التسعة .

فلذلك ولله المثل الأعلى : هو الخالق ولم يقولها أحد معه .

إذن ثَبَتت له .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « والسِّحر » :

السحر : هو تَخَيُّل شيء غير موجود بأنه موجود .

ولذلك السِّحر : تَخْييل فقط ، وليس قَلْبُ حَقَائِق .

وهذا هو الفَرْق بين معجزة مُوسى ، ومعجزة سحرة فرعون .

فهذا موسى عليه السلام يذهب لفرعون ، وفرعون وقومه مشهوران بالسحر .

فالله سبحانه وتعالى جاء بمعجزة من نوع السِّحر لكنها فوقه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝ ﴾ [طه] .

فالتجربة جعلها الله هنا ، ولم يجعلها عند فرعون ، لكي يطمئن موسى ، وعندما يخاف يفهم أنها ليست حقيقة وإنما واقع .

لكن هناك النظارة يروا الحبل ثعبان ، وإنما الساحر لا يراه ثعبانًا .

ولذلك لما جمع السَّحرة : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ .

وألقى موسى عصاه : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ٦٦] .

فالساحر يرى الشيء على حقيقته وإنما رأوها حية تسعى ، فقالوا : هذا ليس سحرًا ، فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه : ٧٠] .

فالسحر : هو تخيل العين لشيء على غير حقيقته ، مثل ما قال الله تعالى في كتابه : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

فالشيطان جنس من الخلق خفي ؛ يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم وله قدرة على ما لا تَقْدرون عليه ؛ لأنه مخلوق من نار ، وأنتم مخلوقون من طين ، والنار إشعاع والطين جسم كثيف له مادة .

فالتفاحة مثلاً مخلوقة من الأرض هذه التفاحة لو وضعتها وراء جدار هل أثر التفاحة يأتي لي ؟ بالطبع لا .

لكن إذا وضعت قطعة نار وراء الجدار بعد مدة أجد الجدار يسخن ؛ لأنها نار تتغلغل في الاجسام وتنفد من الجدار ، فيأتي الشيطان فيخيل الشيء القبيح ، ويجعل له قدرة على التشكل ، ويشكل نفسه ، مثل القناع الذي يُلبس ويَخوف به ، فيعمل لنفسه قناع مخيف قذر ، ويأتي لوجه المرأة فيجعله في عين الرجل وكأنه وجه قرد .

هذا يخيل إليه ، فالجن له قدرة على هذا التخييل ، إنما الحقيقة لا يقدرون عليها ، نلجأ لإبطال السحر إلى واهب الحقيقة ، ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

فلابد لكي يحدث الضرر أن يكون بإذن الله .

لأن مثلاً هنا شخص يكرهني ويريد أن يتخلَّص مني ، وَأَقْدَرَهُ الله على أن يشترى مسدسًا ، وتعلم كيفية التصويب وملأه بالرصاص ، وجلس أمام قلبي وصوب تجاهه ، وقصده أن يقتلني وربما حرَّك الزناد بالفعل ، وأثناء تحريك الزناد يأتي برغوثًا فيلدغني فألتفت وأتحرك فيفشل في التصويب فلا يصل الضرر إلي لأن الضرر لا يتم مادام الله لا يُريده .

فالسحر باطل ؛ لأنه يُفسد العلاقة بين الناس بوسائل الوهم والتخييل .

وهذا يتأتي من البشر أيضًا فيأتي شخص يودود في أذن آخر أن زوجته كذا وكذا فيفسد بينهما ، مثل ما يفسد الجن الذى يستطيع أن يتشكل

بشكل قبيح ويلقى هذا على وجه المرأة فينظر الرجل إلى امرأته فلا يجدها على الشكل المطلوب فإياكم والسحر فإنه يقلب الحقائق وبالتالي يفسد السلوك .

وقوله ﷺ : « وَقَتْلُ النَّفس التي حَرَّم اللَّهُ إِلاَّ بالحق » :

قتل النفس عدوان لا على النفس المقتولة ولكن على من أوجد النفس المقتولة .

فالله وهب الحياة وأنت تريد أن تزهق الحياة

فهذا عدوان ليس على ، وإنما هو عدوان على من وهب الحياة للنفس .

وقوله ﷺ : « وأَكْل الرِّبا » .

الربا : هو زيادة تطرأ على أَصْل القرض بغير عمل . المقترض يقترض لأنه احتاج والذي أعطى القرض قادر .

فهنا عنصرين : قادر على أن يعطي ، ومضطر على أن يأخذ .

فكيف تطلب من الذي لا يجد شيئًا أن يعطي الشيء وزيادة عليه ؟ وكيف تطلب لواحد عنده مال أن يزيده بالحرام ؟

يعطى مائة ويريد أن يأخذها مائة وعشرة فتريد أن تأخذ منه الأصل وزيادة ؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأَكْل مَال اليَتِيم » :

اليتيم : من مات أبوه ولم يبلغ مبلغ الرجال .

إنسان وجد وليس هناك مصدر له لاستبقاء الحياة فكان من الواجب أن يشرع لمثل هذه الحالة ما يعوض اليتيم عن فَقْد أبيه .

فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : « وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا »(1) ؛ لأنه خلف أبيه فكأنه قام مقام الأب والأب نفسه قائم مقام الحق ؛ لأن الحق هو الذي استدعى المولود إلى الوجود ، وبالتالي يتكفل بنفقته ورزقه .

فالذي يكفل اليتيم إنما هي يد الله الممدودة إلى خلق الله .

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم معه في الجنة هكذا .

والحق سبحانه وتعالى حينما يصنع ذلك يُرَبِّي في اليتيم معنى ، هذا المعنى : أن لا يحقد على ولد أبوه لم يمت .

لأنه عندما يجد نفسه يتيم والولد الآخر أباه موجودًا فيحقد على كل ولد له أب ، ويُخَطِّئ الله فيقول : لماذا يا رب مات أبي .. ؟!

ولكن عندما يجد اليتيم من يعوله ويكفله عند فَقْد أبيه يهون عليه فَقْدُ أبيه ؛ لأنه لما فَقَد أبًا وَجد آباء .

فقلبه هنا لا يشتغل بالحقد على ولد أباه موجود وحي وينفق عليه .

وشيء آخر : أن اليتيم يجب أن يُرعى رعاية ذاتية ليس لسبب آخر يتعلق

---

(1) رواه البخاري [٥٣٠٤] ، ومسلم [٤٢/٢٩٨٣] عن سَهْلِ بن سعد رضي الله عنه .

بالدنيا ، فقد جعل الله له حصانة فقال صلى الله عليه وسلم : « من مسح على رأس يتيم - يبتغي بها وجه الله - فهو جليسي في الجنة »(1) .

و « يبتغى بها وجه الله » ؛ لأنه قد يمسح على رأس يتيم ؛ لأن أمه جميلة وهو يريد أن يتقرب لها . فهو يريد أن تكون هذه المسحة لله .

وبعد ذلك لما رُبِّي اليتيم ليس فقط كفلنا تربيته وإنما إذا كان له من الميراث شيء أديره بأمانة ؛ لأنه لا يقدر على أن يديره .

ولذلك الله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء : ٥] .

فهو هنا سفيه لا يستطيع أن يديره ، فأصبح ماله وكأنه مالي .

كإنسان مسلم آخذه لأثمره فإذا بلغ اليتيم الرُشد ، أو السفيه الإدراك والعقل يقول الله لنا : ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : ٦] .

فنسب الأموال هنا لليتيم أو السفيه ، أما في الآية الأولى لمن يتولى الرعاية ؛ لأنه ماله هو وليس مال اليتيم .

---

(1) رواه أحمد فى المسند [٢٥٠/٥] والطبراني في الكبير [٢٣٨/٧٩٢٩/٨] من حديث أبي أمامة بلفظ : « مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعَرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ وَفَرَّقَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى » قال الحافظ في الفتح [١٥١/١١] : وسنده ضعيف ، ولأحمد أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له : أَطْعِمِ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ وسنده حسن . اهـ .

وربما عندما يفقد اليتيم أباه ويجد آباء يرعونه ويكفلونه يعيش في حالة أرغد ؛ لأنه وجد من يعينه من جميع الآباء .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « والتولِّيَ يَوْمَ الزَّحْفِ » .

الحق سبحانه وتعالى شرع منهجًا يريد له شيئين :

الأول : الدوام ، والثاني : التضحية

أما التضحية : فهذه شهادة على أن من يُضَحِّي بنفسه من أجل المنهج فهو على ثقة من أن نفسه لا تذهب هباءً بل سيجد حياة خيرًا من هذه الحياة ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

فهذا ضحى بنفسه ؛ لأنه صدق أن هناك حياة خيرًا من هذه الحياة . فلو لم يعتقد ذلك ما ضحى بنفسه .

فلابد من معارك فيها شهداء ولابد من بقاء لأُناس يحملون المنهج . فلابد من مبدأين : شهيد يثبت صدق المنهج ، وغير شهيد يثبت بقاء المنهج .

فالذي يتولى يوم الزحف – وهو اجتماع كل القوى لمجابهة العدو الذي لا تقدر عليه طائفة – يريد أن يهدم هذين المبدأين .

المبدأ الأول : أنه هرب من هذا ؛ لأنه يخاف أن يموت ؛ لأنه لا يفهم عندما يموت سيذهب إلى حياة خير من هذه الحياة .

والمبدأ الثاني : أنه حين يتولى يوم الزحف سيجعل العدو ينتصر علينا فلا يكون حينئذ بقاء للمنهج .

والله يريد أمرين : بقاء المنهج ، والدليل على صدق المنهج .

فصدق المنهج بالشهادة ، والبقاء للمنهج بالحياة ، ولذلك : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

وقوله ﷺ : « وَقَذْفُ المحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ الغَافِلاتِ » :

لأنك إن قذفت محصنة بالباطل فأنت لا تعمل خيرًا ، فأنت تظلمها بما لم تفعل ، فالذي يحدث هنا أن البريئة نالها شيئًا من الكذب . وحينئذ موازين الحياة تختل وتصاب البريئة بالسوء وهي غير مسيئة ، فيتشكك الإنسان في آله وفي بناته ، وفي زوجاته وفي أمه . وحينئذ يَحْدث ذُعْرًا اجتماعيًا في المجتمع .

نسأل الله تعالى أن يجنبنا كل هذه المثالب وأن يعطينا خيرات هذه المواهب آمين .

○○○

الوصية الرابعة والعشرون

من الأدعية المأثورة قبل النوم

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ .

ثُمَّ قُلْ : « اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » ؛ فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ . قَالَ : فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا بَلَغْتُ : اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ . قُلْتُ : وَرَسُولِكَ ؟ قَالَ : « لَا وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ »(1) .

---

(1) رواه البخاري [٢٤٧] ، ومسلم [٥٦/٢٧١٠] .

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ : ثَلَاثُ سُنَنٍ مُهِمَّةٍ مُسْتَحَبَّةٍ ، لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ :

إِحْدَاهَا : الْوُضُوءُ عِنْدَ إِرَادَةِ النَّوْمِ ، فَإِنْ كَانَ مُتَوَضِّئًا كَفَاهُ ذَلِكَ الْوُضُوءُ ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ النَّوْمُ عَلَى طَهَارَةٍ ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَمُوتَ فِي لَيْلَتِهِ ، وَلِيَكُونَ أَصْدَقَ لِرُؤْيَاهُ ، وَأَبْعَدَ مِنْ تَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي مَنَامِهِ ، وَتَرْوِيعِهِ إِيَّاهُ .

الثَّانِيَةُ : النَّوْمُ عَلَى الشِّقِّ الأَيْمَنِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُحِبُّ التَّيَامُنَ ، وَلِأَنَّهُ أَسْرَعُ إِلَى الِانْتِبَاهِ .

وَالثَّالِثَةُ : ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِيَكُونَ خَاتِمَةَ عَمَلِهِ » .

وانظر النووي بشرح مسلم [٤٣/٩] .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ » .**

حين ينام الإنسان يَفْقِد تدبير حركة نفسه ، ويفقد العقل المُدَبِّر للحركة ، والحركة التي تدفع عنه كل أذى وتجلب له كل خير .

فالخير في النوم هنا أن ينام ، فالجوارح سَكَنت ، وتحتاج لمعونة من الله ليحفظك وأنت ساكن ؛ لأنك وأنت مستيقظ متحرك لا تستطيع أن تدافع عن نفسك من حشرات وهوام .

فحين ينام الإنسان وعنده متاعب يجعل عليه حارس من البشر .

والذي لا يريد أن يكون عليه حارس من البشر فالله يَحْرسه .

فأنت بحاجة إلى معونة الله تستدعي فضل الله عليك في هذه اللحظة فوق ما كنت تَستدعيه وقت الحركة ؛ لأنك هنا ليس عندك عقل ولا حركة ، لا حول لك إلا بالله .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ » :

لأنك إن قلت ذلك وأنت يقظان انعقد ذلك في نفسك وأنت نائم ، ولذلك يقولون : « الجائع يحلم بسوق العيش » .

فالذي باله مع الله لما ينام يظل باله مع الله ، والذي باله مع شهوة يظل باله لما ينام مع الشهوة .

استصحب وأنت يقظان ما يعينك وأنت نائم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ » :

الظَّهر هو محل الأخذ بالغيبة من ورائي .

فالذي يأتي من أمامي أستطيع دفعه ، ولكن حينما يأتي من ورائي لا أعرفه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ » :

رغبة : أنني أريد منك الخير ، ورهبة : أنني أخافك وأحبك حبًا يجعلني أخاف أن لا أكون قد أدّيت ما تطلبه مني .

أنا نهاري انتهى ولا أعرف ما عملته فيه هل يقربني منك أم يباعدني عنك ؟

فإن كان فيه ما يُقَرِّب فرغبة إليك وإن كان فيه ما يباعد فرهبة منك .

وقت الحساب ساعة النوم فيمر عليه الشريط : عملت كذا ، عملت كذا .

فإن كان خيرًا فقد رغب في الله ، وإن كان عمل شرًا فقد يرهب أن يلقى الله الآن وهو عامل شرّ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ » :

لا حول لي إلا بك ، فأنا في الحياة إن فقدت الكل حولي فلا أفقد ذاتي في أن أدفع عن نفسي الأشياء وأجلب لنفسي المصالح ، لكن لما أنام ليس معي أحد وحتى نفسي ليست معي فليس لي إلا أنت .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ »

المعني : أنني محافظ على ما أنزلته ؛ لأنك أنزلت منهجًا لحركة حياتي ، افعل كذا ولا تفعل كذا ، فأنا مستحضر كل هذه الأشياء .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ » .

هو الذي بلغني هذا القرآن ، والقرآن وحده لا يكفي ؛ لأنه كتاب إعجاز ومعجزة ، وهو قد مس أصول الدين مسًا في أصولها ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبينها : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] .

فلا يكفى أنك تأخذ منهج القرآن فقط دون السنة .

فإذا أخذت منهج القرآن في الصلاة كم وقت أُصلِّيه ، وكل وقت كم ركعة ، وفي الصلاة ماذا أفعل ؟

كل هذا لا أستطيع معرفته إلا من الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلا يكفى أن تقول بالقرآن فقط بل يكفى أن تقول بالرسول ؛ لأنه هو الذي يبين هذا المنهج الذي أجمله القرآن : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ » .

يعني كنت ستنام هذه الليلة ، فقد صفيت يومك .

فإن كسبت شيئًا فمن الله ، وإن خسرت شيء فستخاف من الله .

فهنا إيمانك أصبح سليمًا « رغبة ورهبة إليك » .

اللَّهم اجعل نهارنا كَسْب حَلال ، واجعل ليلنا سُكُون راحَة ، لنستأنف حركتنا في اليوم التالي بما تحب من الطاعة والرضى .

○○○

الوصية الخامسة والعشرون

إعاذة من استعاذ بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ اسْتَعَاذَكُم بالله فَأَعِيذُوه ، وَمَنْ سَأَلَكُم بالله فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوه ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوه ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاتُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوه »(١) .

(١) رواه أبو داود [٥١٠٨، ٥١٠٩] والنسائي في المجتبى [٢٥٦٧] ، وأحمد في المسند [٦٢/٢] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، والحاكم في المستدرك [٥٧٢/١] ، وابن حبان في صحيحه [٣٤٠٨] ، وصححه الألباني في الصحيحة [٢٥٤] وفي الإرواء [١٦١٧] .

قال في عون المعبود [١٦٧٢] : « قَالَ الطِّيبِيُّ : أَيْ مَنْ اِسْتَعَاذَ بِكُمْ وَطَلَبَ مِنْكُمْ دفع شَرّكُمْ أَوْ شَرّ غَيْركُمْ قَائِلًا : بِاللَّهِ عَلَيْك أَنْ تَدْفَع عَنِّي شَرّك فَأَجِيبُوهُ ، وَادْفَعُوا عَنْهُ الشَّرّ تَعْظِيمًا لِاسْمِ اللَّه تَعَالَى ، فَالتَّقْدِير مَنْ اِسْتَعَاذَ مِنْكُمْ مُتَوَسِّلًا بِاللَّهِ مُسْتَعْطِفًا بِهِ ، وَيُحْتَمَل أَنْ يَكُون الْبَاء صِلَة اِسْتَعَاذَ ، أَيْ مَنْ اِسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهُ بَلْ أَعِيذُوهُ ، وَادْفَعُوا عَنْهُ الشَّرّ فَوَضَعَ أَعِيذُوا مَوْضِع اِدْفَعُوا ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا مُبَالَغَة « فَأَعْطُوهُ » : أَيْ تَعْظِيمًا لِاسْمِ اللَّه وَشَفَقَة عَلَى خَلْق اللَّه .

« وَمَنْ دَعَاكُمْ » : أَيْ إِلَى دَعْوَة . « فَأَجِيبُوهُ » : أَيْ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَانِع شَرْعِيّ .

« وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا » : أَيْ أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ إِحْسَانًا قَوْلِيًّا أَوْ فِعْلِيًّا .

« فَكَافِئُوهُ » : مِنْ الْمُكَافَأَة أَيْ أَحْسِنُوا إِلَيْهِ مِثْل مَا أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ اهـ .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ اسْتَعَاذَكُم باللَّه فَأَعِيذُوه » :**

معنى استعاذ بالشيء أن هناك شيء أقوى منه يهدده في حياته ، أو في راحته ، وليس عنده قوة تدفع هذا الشيء .

وعندما لا يأتي عنده قوة تدفع هذا الشيء يتذكر أن له ربا ، فيقول : أنا استعذت باللَّه منك يا هذا ! فأنا لست لي قوة وإنما قوتي جاءت لي من اللَّه ، فأنا أستعيذ باللَّه منك أنت ؛ لأنه أقوى منك .

أنت قوى عنى بظروفك ولكن ربي وربك أقوى منك ، فأنا أستعيذ باللَّه منك وأطلب من اللَّه ملجأ من جبروتك ؛ لأنني لا حول لي ولا قوة ، ولكن إيماني لم يُشلمني إلى نفسي .

وهذه هي فائدة الإيمان باللَّه الذي هو أقوى مني ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

حتى إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما خطب امرأة وكانت لها شيء من الجمال ، فغار منها النساء وقالوا : لو تزوجها النبي ستأخذه ! فقالوا لها : النبي يحب كلمة عندما تدخلين عليه فقولي : « أعوذ باللَّه منك » !! فقالت : أعوذ باللَّه منك .

فقال : استعذت بمعاذ(١) . يعنى لا أستطيع أن أخرج منك ما دمت قد لجأت إلى اللَّه .

(١) راجع : التلخيص الحبير لابن حجر [١٣٢/٣] .

وقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « وَمَنْ سَأَلَكُم باللَّه فَأَعْطُوهُ » .

ولو كذبًا ، ولو سألني وهو غير محتاج ؛ فلأن تخطئ في العطاء خير من أن تصيب في المنع .

لأنه ربما يكون ابن سبيل وغنى في بلاده ، إنما ضاعت منه كل الأشياء في الطريق ، فلا ترده مادام سألك باللَّه .

ولذلك بعض الصالحين جاءه رجل ، فقال : رأيت رسول اللَّه في المنام وأمرني أن آتيك لتعطيني كذا .

فضحك ، وقال : يا هذا رسول اللَّه يأتي للآخذ أم للمعطي ؟! لكن وقد سألتني برسول اللَّه ، ولو كذبًا فسأقضي حاجتك !

وقوله صلى اللَّه عليه وسلم : « وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوه »

الدعوة : أن تطلب من إنسان أن يزورك في بيتك أو تزوره في بيته .

فهذا الإنسان يستحق بطاعته وبسلوكه أن يكون بينك وبينه مودة ، فاجعل طلبه لك تحية ، وإجابتك له رَدٌّ للتحية بِمِثْلِها فَضْلاً عن خيرٍ منها .

وقد قال النَّبِيّ صلى اللَّه عليه وسلم : « لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ » يعنى إلى ذراع شاة(١) .

(١) رواه البخاري [٥١٧٨] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللَّه تعالى عنه .
قال الحافظ ابن حجر رحمه اللَّه في الفتح [٢٤٦/٩] : « ذَهَبَ الْجُمْهُور إِلَى أَنَّ الْمُرَاد بِالْكُرَاعِ هُنَا كُرَاع الشَّاة ... وَفِي الْحَدِيث : دَلِيل عَلَى حُسْن خُلُقه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ =

لأن الدعوة معناها رغبة من الداعي في المدعو أن يكون له صلة به في الود ، فهو يريد أن يشرف بى ، يريد أن يصاحبني .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوه » :

من صنع إليك معروفًا جعل الله في جانبك .

فالذي خلق الخلق الله ، ومادام هو خالقنا فهو المتكفل بمعيشتنا .

والذي استدعى الخلق إلى الوجود هو الله ، فلابد أن يعطيهم النفقة .

فإذا طرأ عليك ضيق في النفقة ، فالذي يقوم بتوسعة هذا الضيق عنك هو أخ لك جعله الله سببًا ليعمل الذي يريد الله عمله .

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] .

والحكمة من ذلك : أن الله يُجرى التّحاب والتّعاون بين الناس ، وعندما أجد أحدًا يعاونني بمعروف لا أكره المعروف عنده ، لا أكره أنه غني ، لأنني نالني منه شيء .

فالحكمة من ذلك إذهاب الحقد والحسد .

= وَسَلَّمَ وَتَوَاضُعه وَجَبْره لِقُلُوبِ النَّاس ، وَعَلَى قَبُول الْهَدِيَّة وَإِجَابَة مَنْ يَدْعُو الرَّجُل إِلَى مَنْزِله وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَيْهِ شَيْء قَلِيل ، قَالَ الْمُهَلَّب : لَا يَبْعَث عَلَى الدَّعْوَة إِلَى الطَّعَام إِلَّا صِدْق الْمَحَبَّة وَسُرُور الدَّاعِي بِأَكْلِ الْمَدْعُوّ مِنْ طَعَامه وَالتَّحَبُّب إِلَيْهِ بِالْمُؤَاكَلَةِ وَتَوْكِيد الذِّمَام مَعَهُ بِهَا ، فَلِذَلِكَ حَضَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْإِجَابَة وَلَوْ نَزُرَ الْمَدْعُوّ إِلَيْهِ . وَفِيهِ الْحَضّ عَلَى الْمُوَاصَلَة وَالتَّحَابّ وَالتَّآلُف ، وَإِجَابَة الدَّعْوَة لِمَا قَلَّ أَوْ كَثُرَ ، وَقَبُول الْهَدِيَّة كَذَلِكَ » اهـ .

ومادمت أنا فعلت هذا الشيء نيابة عن الله ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] فأنا بذلك عندما أعطى فأنا أؤدي عن الله ، ومادمت أنا أؤدي عن الله فجزائي من الله .

أنت أعطيت على قدر طاقتك ، ومعونة الله على قدر قدرته .

فأنا الكاسب . فهو يحب الذي يطلب منه .

ولذلك لما سُئل الإمام علي رضى الله تعالى عنه : أنا أريد أن أعرف أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

قال : هذا سؤال جوابه ليس عندي ، ولكن جواب السؤال عندك أنت .

قال : كيف وأنا أسألك ؟

قال : إذا دخل عليك من يريد أن يعطيك هدية ومعه رجل يطلب منك عطية .

ـ هذا جاء ليزيد ما عندك .

ـ وهذا جاء لينقص ما عندك فلأيهما تبش وتهش وتبدأ ؟

تقدم يدك للهدية أم بالعطية ؟

فإذا أثرت من جاء يهدي فأنت من أهل الدنيا ؛ لأنك أحببت من يزيد لك دنياك .

وأما إن قدمت الثاني فأنت من أهل الآخرة ؛ لأنك عرفت أنه يحمل حسنتك لك إلى الآخرة يوم القيامة حتى يكون الله في جانبك .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاتُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوه » :

السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها كانت إذا أَمرت جارية عندها بإعطاء صدقة تقول : أَعْطُوه الصدقة ثم انظروا بماذا يَدْعون لي ، واحفظوه جيدًا .

فإذا : قال : وَسَّع الله عليها ، تدعو بمثل ذلك لمن دعا حتى يبقى لها أجر الصدقة .

فبمثل ما دُعي لها تدعو حتى يبقى لها أجر الصدقة .

اللّهم إني أسألك أن تُعيننا على ردّ التحية بمثلها فضلاً عن خير منها ، وأن تكافئ من يعطينا خيرًا بأن لا يحتاج أبدًا .

○○○

الوصية السادسة والعشرون

بادروا بالأعمال سبعا

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« بَادِرُوا بالأَعْمَالِ سَبْعًا : مَا تَنْتَظِرون إلا :

١- فَقْرًا مُنْسِيًا .

٢- أَوْ غِنى مُطْغِيًا .

٣- أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا .

٤- أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا .

٥- أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا .

٦- أَوْ الدَّجَّال ، فَإِنَّهُ شَرُّ غَائِبٍ مُنْتَظَر .

٧- أَوْ السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ »(١) .

الشرح

وقوله ﷺ : « بَادِرُوا بالأَعْمَالِ سَبْعًا : مَا تَنْتَظِرون إلا فَقْرا مُنْسِيًا » :

نبادر الفقر المُنْسِي بالعمل حتى لا يوجد ذلك الفقر .

(١) رواه الترمذي [٢٣٠٦] وقال الألباني : ضعيف ، والحاكم فى المستدرك [٣٢١/٤] وأبو يعلى فى مسنده [٦٥٤٢] وقال محققه : إسناده رجاله ثقات .

وبتصحيح الإيمان حتى إن عجزنا عن الحركة لم يعجز صاحب فائض الزكاة عن الدلالة علينا .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ غِنىً مُطْغِيًا »

نُبادر الغنى المطغي .

إياك أن تطلب الغنى لِتَشتغلي به .

فهناك فرق بين غنى تَشتَغِني به ، وغنى تَشتَغلي به .

فالغنى الذي تريد أن تستعلي به يغريك بالطغيان على الغير .

ومادام لك قوة تطغى بها على الغير فاستعذ بالله من هذه المسألة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا » :

أنا الآن سليم ولا أضمن أن أكون سليمًا دائمًا ، فَعَجِّل بعمل لك في موازينك قبل أن لا تقدر على العمل ، مثل قوله ﷺ : « حجوا قبل أن لا تحجوا »(١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا » :

الإنسان وهو شاب يستطيع أن يعمل أشياء كثيرة في الخير ، وعندما يعجز عند الكبر لا يستطيع أن يعمل هذه الأشياء .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٤٤٩/١] والبيهقي في الكبرى [٣٤١،٣٤٠/٤] والدارقطني في سننه [٣٠١/٢] عن الحارث بن سويد قال : سمعت عليًا رضي الله تعالى عنه يقول : « حجوا قبل أن لا تحجوا » فكأني أنظر إلى حبشي أصمع أفدع بيده معول يهدمها حجرا حجرا فقلت له شيء تقوله برأيك أو سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ولكني سمعته من نبيكم ﷺ .

وفي الحديث : « خذ من شبابك لهرمك »(١) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا » .

أي : موتًا مفاجئًا .

ولذلك قلنا : أعمال الدنيا تؤجَّل ، وأعمال الآخرة تُعَجَّل ؛ لأنني لا أعلم متى ينزل بي الموت .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ الدَّجَّال ، فَإِنَّهُ شَرُّ غَائِبٍ مُنْتَظَر » :

الدَّجال هو الذي يريد أن يزين لنا جرائم الشرك ويدفعنا عن التوحيد .

والله تعالى سيعطيه أشياء تخْدعُ الجاهل بأنه سيكون له قدرة على أشياء يعملها(٢) .

والله يريد أن يعلم من عنده ثبات على الحق ؛ لأنه لولا وجود الشيطان ما كنا نستطيع اختبار قوة الإيمان ، إنما الشيطان يُحَدِّث والإيمان يمنع .

فعندما يوجد الشيطان يبين لنا أصالة الإيمان في نفسي ، وإلا لو لم يوجد هذا الشيطان للنفس الإنسانية ، ما كان عنده مناعة لكبت الفَساد .

نحن أحيانًا نأتي بالميكروب نفسه - الميكروب الخامد - ونطعم به الإنسان لكي نحميه من المرض .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) راجع الكلام على الدجال بتوسع في التذكرة للقرطبي ، ونهاية البداية والنهاية لابن كثير ، والدار الآخرة للشيخ الشعراوى وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي .

والدَّجل : هو إظهار غير الحق بصورة الحق بصورة تعشقها النفس .

فكل واحد يعمل هذا الأمر يصير دجالاً .

فالشيوعية دخلت بِدَجَلٍ على الخلق في أنها تبشر بالفردوس المفقود .

وزينتها لنا بأنها أخذت من مال الأغنياء فأعطته للفقراء !

وقالوا : هذا جميل أن الكل يبقى سواء .

وعندما الكل يبقى سواء امنعوا الذي يأتي بالمال وقد أخذتم الموجود ، اتركوا ناس تعمل شيء حتى تأخذوه وتعطوه للناس . هذا فاسد ! فقضت على نفسها .

فمعنى الدجال : هو الذي يُزَيِّن لك الشر ولكن بأسلوب تعشقه النفس .

والذي يميل إليه هو الذي لا يقوى على مناهج الخير ليعملها .

فهو ينتظر أي شيء يأتي ليخلصه منها .

والذين دجَلُوا بالأصنام ، قالوا : نعبدها ، والعبادة معناها : طاعة العابد للمعبود .

فماذا قالت الأصنام لكم : افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا . لم تقل شيئًا .

إذن .. فما الذي جعلكم تعبدونها .

قالوا : لأن هذا إله بلا منهج .

كل ما يزين فهو دجال وما أكثر دجاجلة الوجود .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أَوْ السَّاعَةَ »

الساعة علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ممكن أن تقوم الآن فاحذروا أن تقوم عليكم وأنتم على معصية غير مهديين لله .

فستنتقل من وهم تعيش فيه فيما يتعلق بدنياك إلى حقيقة كنت غافلاً عنها فيما يتعلق بأُخراك .

وزمانها لا يُعْلم ، والإبهام عادة أول دُعامة من دعائم البيان .

عندما يبهمها ويبهم وصفها كأنه يقول لك : انتظرها في أي وقت ، كما أبهم زمن الموت ، فكل واحد أُبهم زمن موته حتى يظن أنه مَيِّت في أي لحظة .

منع علمك بالوقت حتى يشيع الأمر في كل الوقت انتظره في أي وقت .

مثلاً : إذا أذن الظهر ، لا تقل عندى وقت إلى العصر .

من يدريك أنك ستظل حيًا إلى العصر ؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » :

أَدْهى من الدَّجال ، أَدْهَى من كل ما مر بك لأنها شيء يعم الكل ؛ وهي بلوى ومصائب ؛ لأن البلوى إذا لم تعم ربما تقل : يمكن أن ينجيني !

اللَّهُمَّ لا تغيب هذه النَّصائح عن بَالِنَا لتصلح أحوالنا .

○○○

فأحكمها إحكامًا بحيث تستطيع أن تحميك من أن تنزل إلى القاع .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « واسْتَكْثِر الزّادَ ؛ فَإنَّ السَّفرَ طَويلٌ »

وخير الزاد التقوى ، فالسّفر طويل إلى الآخرة فينبغي أن تعمل أشياءَ كثيرة حتى توصلك إلى الآخرة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَخَفِّفِ ظَهْرَكَ ؛ فَإن العَقَبَةَ كَؤُودٌ »

يعنى : لا تحمل أشياء كثيرة أكثر مما تطيق ؛ لأنه إن كنت قويًا تستطيع الحمل والسّير ، ستأتي عقبات تجعلك لا تستطيع التّخَطّي وأنت تحملها فاجعل حِمْلك على قَدْرك .

والعقبة : هو الشيء الذي يعترض السائر بحيث لا يستطيع أن يتخطاها .

وكؤود : يعنى لا تستطيع أن تزيلها ، عقبة ثابتة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَخْلِصِ العَمَلَ ؛ فَإنَّ النَّاقِدَ بَصِير »

الناقد : هو الذي يَنْقُد النقود .

كانت النقود قديمًا ذهب وفضة ، لكن مرة يزيفوا الذهب ومرة يُزَيِّفوا الفضة .

فإياك أن تُزَيِّف ؛ لأن النّاقد الذي ينقد الأشياء بصير واعي لا تستطيع أن تغطي عليه شيء فلا تغلف أعمالك بخير وفي باطنها شر ؛ لأن الذي يَنْقُد العمل بصير بكل شيٍ فلا تستطيع أن تداري عليه شيء .

فامنع نفسك من الرّياء .

ومُرَادُ الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الوصية : أن يجعل العمل الصالح مرادنا فيه الصلاح لذاته لا أن تُلْبِسه مَلْبَس الصَّلاح ، وفي باطنه يكون طالحًا لأن الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم : « فَإنَّ النَّاقد بصير » .

نسأل الله أن ينفعنا بهذا الدعاء نفعًا يبصرنا بحركتنا في الحياة تبصيرًا يؤدي بنا إلى خير ويصرفنا عن الشر .

ooo

الوصية الثامنة والعشرون

في فضل يوم الجمعة

عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ وَفِيهِ قُبِضَ وَفِيهِ النَّفْخَةُ وَفِيهِ الصَّعْقَةُ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ »(١) .

الشرح

○ **قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ » :**

يوم الجمعة يتميز في قانون العبادات بأشياء : فحين يأتي أي وقت في غير أيام الجمعة يؤذن المؤذن فيعلن بداية وقت جديد ونهاية وقت سابق ونسرع دائما إلى أدائها إسراع من لا يضمن حياته أن يؤجلها .

ولذلك كثير من الناس يقول : إن الزمن في الظهر : من الظهر للعصر ، وفي العصر : من العصر للمغرب .

فإذا أخرت الوقت إلى نهايته تكون أديت ولكن من يضمن لي أن أعيش حتى أدرك آخر الوقت .

(١) رواه أبو داود [١٠٤٧] والنسائي في المجتبى [١٣٧٤] ، وابن ماجه [١٠٨٥-١٦٣٦] ، وأحمد في المسند [٨/٤] وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح ، رجاله رجال الصحيح ، غير صحابيه فمن رجال أصحاب السنن ، وابن خزيمة في صحيحه [١٧٣٣] ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير [٢٢١٢] .

فهناك عمل يأثم الإنسان فيه ساعة أن لا يمكن ، إنما لو مكن فليس هناك إثم .

ولذلك من وصايا رسول الله ﷺ : « الصلاة لوقتها »(١) ؛ لأن الصلاة لوقتها دعاء من الله ، فلا تجعل الله يدعوك فلا تجيب . وقد ثبت قال الإمام على رضي الله عنه : « أجب الله كما دعاك يجيبك إذا دعوته » .

وضرب لذلك مثلاً أن أباك لو دعاك فلم تستمع له ماذا يكون موقف أبيك منك ؟! فاجعل المسألة بالنسبة لربك هكذا ولله المثل الأعلى .

إلا يوم الجمعة فلم يَقُل فقط الآذان يُعلمك وبعد ذلك أنت تختار الوقت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الجمعة : ٩] .

فلم يخرجني من قضاء عملي بل قال : ﴿ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ وهو العنصر الثاني في التجارة لأن التجارة بيع وشراء وهما أساس حركة الحياة .

وخص هنا البيع لأن كل عمل له ثمرة وثمرة الزارع قد تؤخر لستة أشهر أو سنة وثمرة الصانع قد تؤجل لكن البيع ثمرته عاجلة ساعة البيع يكسب أما الشراء فقد يشترى المرء وهو كاره .

(١) روى البخاري [٧٥٣٤] ، ومسلم [١٣٧/٨٥] عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا . قَالَ قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ . قَالَ قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » .

فالبيع هو قمة حركة الحياة ويَفْضُل الشراء فهو يبيع وهو مُجبّ وتأتي ثمرته حالاً بخلاف غيره .

فالبيع إيجاب وقبول ، فأخرجني من أَحَبّ شيء في حركة الحياة ، فدعاني رب هذه الحياة ﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وقال : ﴿ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ ﴾ ؛ لأن يوم الجمعة له خصوصية والدعوة إليه لها خصوصية ؛ لأن الإنسان مخلوقًا لوحده ولكن الإنسان مدني بطبعه ، مدني يعني يعيش في مجتمع له حق يأخذه منه وواجب يؤديه له ، ولا يمكن أن يجمع هذا المجتمع إلا لقاء الجمعة ؛ لأن كل واحد أحيانًا يأتيه كل وقت فيصليه في مكانه لكن يأتي يوم الجمعة فيصلوه جماعة .

فإذا ما جاءت الجماعة عرف كل واحد الشيء عن كل ما في الوجود .

فالذي تَخَلَّف ولم يأتي يسأل عنه لماذا تخلف ؟

فتتعارف مصالحنا جميعًا .

شيء آخر : هو أنني قد أُؤَدِّي البقية مع نفسي إن كنت منفردًا ، ومع أمثالي إن كنت مجتمعًا ، ولكن اجتماع الجمعة يجمع بين الناس على اختلاف طبقاتهم ، فأنا أصلي مع الوزير وأنا عامل عند الوزير ، وأصلي مع الملك وأنا خادم عند الملك ، وأشهده ساجدًا لربه ، وحين أشهده ساجدًا لربه أعرف أن هناك مكانا نلتقي فيه جميعًا في العبودية .

والملك وصاحب المَنْصب يَرَى مَن دُونه وقد رآه ساجدًا وضارعًا إلى اللَّه فيعمل هذا استطراق اجتماعي .

فإذا دخل كل واحد المسجد وكل واحد يأخذ مكانه ، أن تخطي الصفوف فلا .

فاللَّه تعالى ينظم الصفوف يجلس هذا حيث ينتهي به المجلس ويرى أمامه واحد مِمَّن هو دونه فلا يتخطاه والبزّات تختلف ، ولكن يأتمرون بأمر واحد فلا يعملون إلا إذا قال الإمام : اللَّه أكبر .

فأعطيت للإمام السيادة لكن سَاعَة أن يُخْطِئ يُصَحِّح له مَنْ خَلْفه .

اللَّهم اجعل إلهنا في بالنا دائمًا ، واجعل معرفتنا لربوبيته لنا حيثية لطاعتنا له .

ooo

الوصية التاسعة والعشرون

عشر وصايا من النبي ﷺ لمعاذ

عن معاذ بن جبل رضي اللّٰه عنه قال :

أوصاني رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم بعشر كلمات فقال :

١ - لا تُشْرِكْ بِاللّٰه وإن قُتِلْتَ وَحُرِقْتَ .

٢ - وَلاَ تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَن تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ .

٣ - وَلاَ تَتْرُكَنَّ صلاةً مَكْتُوبةً مُتَعَمِّدًا ؛ فإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلاةً مَكْتُوبةً مُتعمدًا فَقَد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللّٰه .

٤ - وَلاَ تَشْرَبَنَّ خَمْرًا فَإنَّه رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ .

٥ - وَإِيَّاك وَالمَعْصِية فَإِنَّ بِالمَعْصِية حَلَّ سَخَطُ اللّٰه .

٦ - وَإِيَّاكَ وَالفِرَارَ من الزَّحفِ وَإن هَلَكَ النَّاسُ .

٧ - وَإِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ فَاثْبُتْ .

٨ - وَأَنْفِقْ عَلَى أَهْلِكَ مِن طَوْلِكَ .

٩ - وَلاَ تَرْفَعْ عنهم عَصَاكَ أَدَبًا .

١٠ - وَخِفْهُمْ في اللّٰه »(١) .

الشرح

○ قوله صلى اللّٰه عليه وسلم : « لا تُشْرِكْ باللّٰه وإن قُتِلْتَ وَحُرِقْتَ ، وَلاَ تَعُقَّنَّ وَالِدَيْكَ ، وَإِنْ أَمَرَاكَ أَن تَخْرُجَ مِنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » :

اللّٰه تعالى خلقنا وخلق لنا قلوبًا تحمل العقائد ، وأعينًا تكون وسيلة للاعتبار ، وآذانًا تسمع هبات الخير ، وألسنة تنطق بالبر ، وجوارح تفعل وتنفعل .

والحق الذي خلقنا بهذه الأشياء أراد أن يجعل لكل جوارحنا مقاييس .

فأول المقاييس : القلب .

وفي الحديث : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »(٢) .

---

(١) رواه أحمد في المسند [٥/٢٣٨] وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف لانقطاعه . وقال الهيثمي في المجمع [٤/٢١٥] : « رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات إلا أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير لم يسمع من معاذ وإسناد الطبراني متصل وفيه عمرو بن واقد القرشي وهو كذاب » .
وقال المنذري في الترغيب [١/٢١٥] : « رواه الطبراني في الأوسط ولا بأس بإسناده في المتابعات » .
وصححه الألباني من حديث أبي الدرداء مختصرا في الإرواء [٢٠٢٦] .

(٢) تقدم تخريجه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَلاَ تَتْرُكَنَّ صلاةً مَكْتُوبةً مُتَعَمِّدًا ؛ فَإِنَّ مَنْ تَرَكَ صَلاةً مَكْتُوبةً مُتعمدًا فَقَد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّه » .

نستطيع أن نقول الصَّلاة عماد الدِّين ، وما دام هي عماد الدين أنت تعيش في ملك اللّه بنعم اللّه ، فأنت في كل الوجود مع نعمة اللّه ، فأنا أريد أن تكون مرة مع المنعم نفسه .

أنت في كل النعم مع نعمة اللّه ولكني أريدك أن تكون مع المنعم .

مثلاً : لو جاء رجل من أهل الخير وعمل مائدة كبيرة لأهل البلد ، فدخلت فوجدت منها ما لذَّ وما طاب فهناك من ينشغل بالنعمة وهناك من ينشغل بمن صنع هذه المائدة ويترك الأكل والشرب .

ففرق أن تكون مع النعمة وأن تكون مع المنعم .

ففي الصلاة أنت مع المُنعم وفي غير الصلاة أنت مع النعمة .

ولذلك هو سبحانه سلوى المريض : « مرض فلان فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده »(١) .

فكأن المريض مع اللّه ، والصحيح مع نعمة اللّه .

وفرق بين الأمرين .

ولذلك تجد هناك مريضا الناس تتعب من أجله ، وهو يضحك .

(١) تقدم تخريجه .

فلو لم يكن هناك أنس يملؤه - بأنه في معية اللّه - ما ضحك فأنت الذي تتعب !

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « وَلاَ تَشْرَبَنَّ خَمْرًا فَإِنَّه رَأْسُ كُلِّ فَاحِشَةٍ » .

كلمة الخمر معناها : الستر .

والخمار معناه الذي يستر .

فالخمر تستر العقل ، والعقل هو المدبر لحركة الجسم كله بحيث لا يوجه إلا لخير يشرع اللّه فيه الخير .

فإذا أردنا أن نستر العقل فقد سترنا المدير للحركة الذاتية في النفس البشرية ، فتضطرب الحركة فبدل أن يحكمها منهج اللّه خرجت المسألة عن منهج اللّه .

فالعقل يسيطر على تنظيم الحركة على وفق ما شرع اللّه فيجب ألا تستره ؛ لأنك بسترك له تتلبد عليك الأمور .

فيريد اللّه منا أن نحافظ على هذه الجوهرة لتكون سيطرتها على إدارة حركة حياتنا إدارة سليمة تتفق مع منهج من خلق العقل .

فإذا أتيت بشيء يستر العقل فأنت تريد عربدة الجوارح !

وقد كرمنا بنى آدم وجعلنا الانسان المخلوق الوحيد الذي له اختيار يختار يؤمن أو يكفر أو يطيع أو يعطى .

والله لا يريد قوالب تخضع ، وإنما يريد قلوب تخشع .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِيَّاكَ وَالمَعْصِيةَ فَإِنَّ بِالمَعْصِيةِ حَلَّ سَخَطُ اللهِ » :

المعصية : هي أن الله يأمرنا بأمر « افعل » فأنت تقابل الأمر بأن لا تفعل أو تقابل « لا تفعل » بأن تفعل .

ولذلك الأصول في التقوى لا تنقل « افعل » في مجال « لا تفعل » ولاتنقل « لا تفعل » في مجال « افعل » لأن الذي أعدَّك هذا الإعداد للمنهج يضمن صلاح حركتك في الحياة .

ومادام أراد أن يضمن صلاح حركتك في الحياة فلا تخالفن لأنك لو خالفته ستعمل عطب في نفسك .

الصلاح والسلامة أن يطيع في « افعل ولا تفعل » .

وضربنا مثلاً بمن صنع « التليفزيون » هل عمل أي آلة وقال انظرها تصلح لأي شيء ؟ بوتجاز أو ثلاجة .

عملها بقصد إعطاء صوت وحركة .

فهو الذي حدد الغاية فكذلك ولله المثل الأعلى هو الذي خلق الإنسان وهو الذي يحدد غايته .

وهل الذي صنع « التليفزيون » تركني أستعمله على حريتي أو قال ضعه على فولت كذا وكذا ، ولو عملته على خلاف ذلك يُحرق !!

فهو الذي عمل لي « الكتالوج » ، لو أن الإنسان نَفَّذ هذا « الكتالوج » كما قال صانعه يُؤَدِّي مُهِمَّته على أكمل وجه .

وإذا خالف تعليمات « الكتالوج » لا يؤدي مهمته .

وكذلك ولله المثل الأعلى هو الذي خلق الإنسان وعمل له « كتالوج » متمثلا فى افعل كذا ولا تفعل كذا » .

فإذا استعملت ذلك ولم أخالف أديت مهمتي كما ينبغي .

ولذلك كل لخبطة في حياة الإنسان ينبغي أن يسأل نفسه ماذا ضيع من منهج الله ؟

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

انظر ماذا خالفت لتعرف العِلَّة ؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وَإِيَّاكَ وَالفِرَارَ من الزَّحفِ وَإِن هَلَكَ النَّاسُ »

إن رأيت أُناسًا هلكوا أمامك فلا تخف فيمكن بقية النصر تأتي على يديك فلا تستسلم فربما تحق الهزيمة على الكل .

ولكن إذا هلك الناس وأنت تتقدم يعرفوا أنك ما تقدمت إلا وأنت واثق أنك تصل إلى خير من الحياة .

فمن يستشهد فحظُّ الأحياء ؛ لأن الشهيد قال الله عنه : لا تحسبوه قد مات : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

فمعنى ذلك : أن حياته عند ربه وُصلت بحياته الأولى .

أسأل الله أن ينفعنا بهذه العظات انتفاعًا يوصلنا إلى دار المقام في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

○○○

فهرس الموضوعات

الموضــــوع	الصفحة

○ ○ ○

مطابع الشرطة

مطابع الشرطة للطباعة والنشر والتوزيع

شارع المرور - الدراسة [illegible] ٥٩٠٣٥٣٥ - ٥٩٠٣٠٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٦٥٥